في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

٥١

الجزء الأول

دار العربية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٦٠٨٩

في ظلال القرآن

بقلم

سيّد قطب

الجزء الأول

الطبعة الرابعة

دار العربيّة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة وأول سورة البقرة

في ظلال القرآن

الحياة في ظلال القرآن نعمة . نعمة لا يعرفها إلا من ذاقهـــا . نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

والحمد لله .. لقد من عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعتمه ما لم اذق قط في حياتي.ذقت فيها هذه النعمةالتي ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

لقد عشت أسمع الله – سبحانه – يتحدث اليّ بهـذا القرآن .. أنا العبـد القليل الصغير .. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل ؟ أي رفعـة للعمر يرفعها هذا التنزيل ؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم ؟

وعشت – في ظلال القرآن – أنظر من عُلو إلى الجاهليـة التي تموج في الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة .. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفـال .. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأطفال . ولثغة الأطفال .. وأعجب .. ما بال هذا الناس ؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النـداء العلوي الجليل . النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه ؟

عشت اتملى – في ظلال القرآن – ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود .. لغاية الوجود كله ، وغـاية الوجود الإنساني .. وأقيس إليـه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية ، في شرق وغرب ، في شمال وجنوب .. وأسأل .. كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن ، وفي الدرك الهـابط ، وفي الظلام البهيم . وعندها ذلك المرتع الزكي ، وذلك المرتقى العالي ، وذلك النور الوضيء ؟

وعشت – في ظلال القرآن – أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله .. ثم أنظر .. فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية ، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملى

عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها . وأقول في نفسي : أي شيطان لئيم هـذا الذي يقود خطاها الى هذا الجحيم ؟

يا حسرة على العباد !!!

وعشت – في ظلال القرآن – أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود .. أكبر في حقيقته ، وأكبر في تعدد جوانبه .. إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده . وإنه الدنيا والآخرة ، لا هذه الدنيا وحدها .. والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول .. والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة في الطريق . وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله ، إنما هو قسط من ذلك النصيب . وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك . فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع .. على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس، وعالم صديق ودود . كون ذي روح تتلقى وتستجيب ، وتتجه الى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع : « ولله يسجد من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال » .. « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده » .. أي راحة ، وأي سعة وأي أنس ، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح ؟

وعشت – في ظلال القرآن – أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد .. إنه إنسان بنفخة من روح الله : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .. وهو بهذه النفخة مستخلف في الارض: « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » .. ومسخر له كل ما في الارض : « وسخر لكم ما في الأرض جميعاً » .. ولأن الانسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة . جعلها آصرة العقيدة في الله فعقيدة المؤمن هي وطنه . وهي قومه ، وهي أهله.. ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج !..

والمؤمن ذو نسب عريق ، ضارب في شعاب الزمان . إنه واحد من ذلك الموكب الكريم ، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم : نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب ويوسف ، وموسى وعيسى ، ومحمد .. عليهم الصلاة والسلام .. « وإن هذه

أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ..

هذا الموكب الكريم ، الممتد في شعاب الزمان من قديم ، يواجـه — كما يتجلى في ظلال القرآن — مواقف متشابهة ، وأزمات متشابهة ، وتجـارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور ، وتغير المكان، وتعدد الأقوام . يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى ، والاضطهـاد والبغي ، والتهديد والتشريد .. ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو ، مطمئن الضمير ، واثقاً من نصر الله ، متعلقاً بالرجاء فيه ، متوقعاً في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنـا . فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ».. موقف واحد وتجربة واحدة وتهديد واحد . ويقين واحد . ووعد واحـد للموكب الكريم .. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف . وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد ..

***

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .. « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » .. وكل أمر لحكمة . ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الانسانية القصيرة : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .. « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون».. والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعهـا ، والمقدمات التي يراهـا الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبهـا . ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشىء الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشىء الآثار والنتائج كما تنشىء الأسباب والمقدمات سواء : « لا تدري لعـل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .. « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .. والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنـه مأمور بالأخذ بها ؛ والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها .. والاطمئنان الى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمـه هو وحـده الملاذ الأمين ، والنجوة من الهواجس والوساوس : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم » ..

ومن ثم عشت — في ظلال القرآن — هـادىء النفس ، مطمئن السريرة ، قرير

الضمير .. عشت أرى يـد الله في كل حادث وفي كل أمر . عشت في كنف الله وفي رعايته . عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها .. « أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ » .. « وهو القـاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » .. « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » .. « فعال لما يريد » .. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره » .. « مـا من دابـة إلا هو آخـذ بناصيتها » .. « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » .. « ومن يهن الله فما له من مكرم » .. « ومن يضلل الله فما له من هاد » .. إن الوجود ليس متروكاً لقوانين آليـة صمـاء عمياء . فهناك دائماً وراء السنن الإرادة المدبرة ، والمشيئة المطلقة .. والله يخلق ما يشاء ويختار . كذلك تعلمت أن يـد الله تعمل . ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة ؛ وأنه ليس لنا أن نستعجلها ، ولا أن نقترح على الله شيئاً . فالمنهج الإلهي – كما يبدو في ظلال القرآن – موضوع ليعمل في كل بيئة ، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية ، وفي كل حـالة من حـالات النفس البشرية الواحدة .. وهو موضوع لهذا الانسان الذي يعيش في هذه الأرض ، آخذ في الاعتبار فطرة هـذا الانسان وطاقاته واستعداداته ، وقوته وضعفه ، وحالاته المتغايرة التي تعتريه .. إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره في الأرض ، او يهدر قيمته في صورة من صور حياته ، سواء وهو فرد او وهو عضو في جماعـة . كذلك هو لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لهـا يوم أنشأه .. ولا يفترض في كلتا الحالتين أن مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون او تكشط بجرة قلم ! .. الانسان هو هذا الكائن بعينه . بفطرته وميوله واستعداداته ، يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به الى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته ، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته ، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد الى الله .. ومن ثم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل – الذي يعلمه خالق هـذا الانسان ومنزل هـذا القرآن – ومن ثم لم يكن متعسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياتـه العليا من هذا المنهج . إن المدى أمامه ممتد فسيح ، لا يحـده عمر فرد ، ولا تستحثه رغبة فـان ، يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيـدة ؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد ، ويتخطون الفطرة المتزنة

الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن ! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر ، وتسيل الدمـــاء ، وتتحطم القيم ، وتضطرب الأمور . ثم يتحطمون هم في النهاية ، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لهـا المذاهب المعتسفة ! فأما الإسلام فيسير هيناً ليناً مع الفطرة ، يدفعها من هنـــا ، ويردعها من هناك ، ويقومها حين تميل ، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها . إنـه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة .. والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية او الثالثة او العاشرة او المئة او الألف ... فالزمن ممتد ، والغاية واضحـة ، والطريق الى الهدف الكبير طويل . وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة ، وتتطاول فروعها وتتشابك .. كذلك ينبت الاسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة . ثم يكون دائماً مـا يريده الله أن يكون .. والزرعة قـد تسفي عليها الرمال ، وقد يأكل بعضها الدود ، وقد يحرقها الظمأ ، وقـد يغرقها الري . ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء ، وأنهـا ستغالب الآفات كلهـــا على المدى الطويل ؛ فلا يعتسف ولا يقلق ، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهـــادئة المتزنة ، السمحة الودود .. إنه المنهج الإلهي في الوجود كله .. « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ..

والحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود . ليس فلتة عابرة ، ولا مصادفة غير مقصودة .. إن الله سبحانه هو الحق . ومن وجوده تعـالى يستمد كل موجود وجوده : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العليّ الكبير »..وقد خلق الله هذا الكون بالحق لا يتلبس بخلقه الباطل: «ما خلق الله ذلك إلا بالحق » .. « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! » .. والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. ومن ثم فلا بد للحق ان يظهر ، ولا بد للباطل ان يزهق .. ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرهـا الى تكشف صريح : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ..

والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق ، باقية بقاءه في الأرض: « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النـار ابتغاء حلية أو متاع ، زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأمـــا الزبد

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض. كذلك يضرب الله الأمثال»...
«ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » ..

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور ؟ وأي سكينة يفيضها على القلب ؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح ؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير ؟

* * *

وانتهيت من فترة الحياة — في ظلال القرآن — الى يقين جازم حاسم.. إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الانسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة .. إلا بالرجوع الى الله..

والرجوع الى الله — كما يتجلى في ظلال القرآن — له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه .. إنه العودة بالحياة كلها الى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها ، والتحاكم اليه وحده في شؤونها . وإلا فهو الفساد في الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس في الحمأة ، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

إن الاحتكام الى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضع اختيار . إنما هو الايمان .. او .. فلا إيمان .. « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .. « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم اولياء بعض ، والله ولي المتقين » ..

والأمر إذن جد .. إنه أمر العقيدة من اساسها .. ثم هو أمر سعادة هذه البشرية او شقائها ..

إن هذه البشرية — وهي من صنع الله — لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ؛ ولا تعالج امراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده — سبحانه — وقد

جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .. « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .. ولكن هـذه البشرية لا تريد أن ترد القفل الى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض الى مبدعه . ولا تسلك في أمر نفسها ، وفي أمر انسانيتها ، وفي أمر سعادتها او شقوتها... ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة .. وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز . ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الانسان نفسه ، فترده الى المصنع الذي منه خرج ؛ ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب ، الجهاز الانساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه : « إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » ..

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة . البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجـد السعادة ، إلا حين تردّ الفطرة البشرية الى صانعها الكبير ، كما تردّ الجهاز الزهيد الى صانعه الصغير !

ولقد كانت تنحية الاسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً في تاريخها ، ونكبة قاصمة في حياتها ، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألم بها من نكبات ..

لقد كان الاسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة ، وتعفنت القيـادات ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة ؛ و « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » ..

تسلم الاسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هـذا التصور .. فكان ذلك مولداً جديداً للانسان اعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته.. لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم ؛ كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً ، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء .. نعم ! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجـال ، والعظمة والارتفاع ، والبساطة واليسر ، والواقعية والإيجابية ، والتوازن والتناسق ... بحيث لا يخطر للبشرية على بال ، لولا أن الله أراده لهـا ، وحققه في حياتها .. في ظلال القرآن ، ومنهج القرآن ، وشريعة القرآن .

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ؛ ونحي الاسلام عن القيادة . نحي عنهـا لتتولاهـا

الجاهلية مرة اخرى ، في صورة من صورهـا الكثيرة . صورة التفكير المـادي الذي تتعاجب بـه البشرية اليوم ، كما يتعاجب الاطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الالوان !

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية . يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الانساني في عالم المادة في الكفة الاخرى ؛ ثم يقولون لها : اختاري!!! اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الانسان في عالم المادة، وإما الأخذ بثمار المعرفة الانسانية والتخلي عن منهج الله!!! وهذا خداع لئيم خبيث . فوضع المسألة ليس هكذا ابداً .. إن المنهج الالهي ليس عدواً للابداع الانساني . إنما هو منشىء لهذا الابداع وموجه له الوجهة الصحيحة .. ذلك كي ينهض الانسان بمقام الخلافة في الارض . هذا المقام الذي منحه الله له ، وأقدره عليه، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه ؛ وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ؛ ونسق بين تكوينه وتكوين هـذا الكون ليملك الحيـاة والعمل والابداع .. على أن يكون الابداع نفسه عبـادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام ، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة ؛ وهو أن يعمل ويتحرك في نطـاق ما يرضي الله . فأما أولئك الذين يضعون المنهج الالهي في كفة ، والابداع الانساني في عالم المادة في الكفة الاخرى .. فهم سيئو النية ، شريرون ، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال، وهمت ان تسمع لصوت الحادي الناصح، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة ، وأن تطمئن الى كنف الله ...

وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية؛ ولكن ينقصهم الوعي الشامل، والادراك العميق .. هؤلاء يبهرهم مـا كشفه الانسان من القوى والقوانين الطبيعية ، وتروعهم انتصارات الانسان في عالم المادة . فيفصل ذلك البهر وهـذه الروعة في شعورهم بـين القوى الطبيعية والقيم الايمانية ، وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحيـاة ؛ ويجعلون للقوانين الطبيعية مجالاً ، وللقيم الايمانية مجـالاً آخر ؛ ويحسبون ان القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الايمانية ، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا . اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه . حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس !

هذا وهم .. إنه فصل بين نوعين من السنن الالهية هما في حقيقتهما غير منفصلين . فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء. ونتائجها

مرتبطة ومتداخلة ؛ ولا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره .. وهـذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في ظلال القرآن. ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف : « ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقـاموا التوراة والانجيـل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم » . وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنـات ويجعل لكم أنهاراً » .. وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله الله بهم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ..

إن الايمان بالله ، وعبادته على استقامة ، وإقرار شريعته في الارض .. كلها إنفـاذ لسنن الله . وهي سنن ذات فاعلية إيجابية ، نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار .

ولقد تأخذنا في بعض الاحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونيـة ، حين نرى ان اتباع القوانين الطبيعية يؤدي الى النجاح مع مخالفة القيم الايمانية .. هـذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في اول الطريق ؛ ولكنها تظهر حتماً في نهايته .. وهـذا ما وقع المجتمع الاسلامي نفسه . لقـد بدأ خط صعوده من نقطة التقـاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الايمانيـة . وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما . وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق ، حتى وصل الى الحضيض عندما أهمـل السنن الطبيعية والقيم الايمانية جميعاً ..

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار ، بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقي في الابداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الانساني ، ويعاني من القلق والحيرة والامراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك .. لولا انهم لا يهتدون الى منهج الله ، وهو وحده العلاج والدواء .

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون . فإنفاذ هذه الشريعة لا بد ان يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون .. والشريعة إن هي إلا ثمرة الايمـان لا تقوم وحدها بغير اصلها الكبير . فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم ، كما انها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم . وهي متكاملة مع التصور

الاسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الانساني ، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير ، ونظافة في الشعور، وضخامة في الاهتمامات ، ورفعة في الخلق ، واستقامة في السلوك ... وهكذا يبـــدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الايمانيـة .. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود .

والانسان كذلك قوة من قوى الوجود . وعمله وإرادته ، وايمانـــه وصلاحه ، وعبادته ونشاطه ... هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هـــذا الوجود ؛ وهي مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود .. وكلهـا تعمل متناسقة ، وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق ؛ بينما تفسد آثارها وتضطرب ، وتفسد الحياة معها ، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم: « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».. فالارتباط قائم وثيق بين عمل الانسان وشعوره وبين مجريات الاحداث في نطاق السنة الالهيـة الشاملة للجميع . ولا يوحي بتمزيق هـــذا الارتباط ، ولا يدعو الى الاخلال بهذا التناسق، ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى ، وينبغي لها ان تطارده ، وتقصيه من طريقها الى ربها الكريم ..

* * *

هـــذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة في ظلال القرآن . لعـل الله ينفع ويهدي وما تشاءون إلا ان يشاء ..

سُورَة الفَاتِحة
مَكِّية وآياتها سَبْع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا ٱلضَّالِّينَ » .

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع ، سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ؛ وإلى غير حد اذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً ، غير الفرائض والسنن . ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ من حديث عبادة ابن الصامت : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

إن في هذه السورة من كليات العقيدة الاسلامية ، وكليات التصور الاسلامي ، وكليات المشاعر والتوجهات ، ما يشير الى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة ، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها ..

* * *

تبدأ السورة : « بسم الله الرحمن الرحيم ».. ومع الخلاف حول البسملة : أهي آية من كل سورة أم هي آية من القرآن تفتتح بها عند القراءة كل سورة ، فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة ، وبها تحتسب آياتها سبعاً . وهناك قول بأن المقصود بقوله

تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » .. هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات « من المثاني » لأنها يثنى بها وتكرر في الصلاة .

والبدء باسم الله هو الأدب الذي اوحى الله لنبيه ﷺ في أول ما نزل من القرآن باتفاق ، وهو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك .. » .. وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الاسلامي الكبرى من أن الله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .. فهو - سبحانه - الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجودَه ، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه.فباسمه إذن يكون كل ابتداء . وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه .

ووصفه - سبحانه - في البدء بالرحمان الرحيم ، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها .. وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين ، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمان . فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ؛ ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمان . ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان .. ومهما يختلف في معنى الصفتين : أيتهما تدل على مدى أوسع من الرحمة ، فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا تقصيه في هذه الظلال ؛ إنما نخلص منه الى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها .

وإذا كان البدء باسم الله وما ينطوي عليه من توحيد لله وأدب معه يمثل الكلية الأولى في التصور الاسلامي .. فإن استغراق معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها في صفتي « الرحمان الرحيم » يمثل الكلية الثانية في هذا التصور ، ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد .

* * *

وعقب البدء باسم الله الرحمن الرحيم يجيء التوجه الى الله بالحمد ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين : « الحمد لله رب العالمين » ..

والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله .. فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضاً من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء . وفي كل لمحة وفي كل لحظة وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع ، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الانسان .. ومن ثم كان الحمد لله ابتداء ، وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر : « وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ... » .

ومع هذا يبلغ من فضل الله – سبحانه – وفيضه على عبده المؤمن، أنه إذا قال: الحمد لله . كتبها له حسنة ترجح كل الموازين .. في سنن ابن ماجه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ حدثهم ان عبداً من عباد الله قال : « يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك » . فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها. فصعدا الى الله فقالا : يا ربنا ، إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها . قال الله – وهو أعلم بما قال عبده – : « وما الذي قال عبدي ؟ » قالا : يا رب ، انه قال: لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: « اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها » ..

والتوجه الى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره الله – كما أسلفنا – أما شطر الآية الاخير : « رب العالمين » فهو يمثل قاعدة التصور الاسلامي ، فالربوبية المطلقة الشاملة هي احدى كليات العقيدة الاسلامية .. والرب هو المالك المتصرف ، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للاصلاح والتربية .. والتصرف للاصلاح والتربية يشمل العالمين – أي جميع الخلائق – والله – سبحانه – لم يخلق الكون ثم يتركه هملا . انما هو يتصرف فيه بالاصلاح ويرعاه ويربيه . وكل العوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين . والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة .

والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل ، والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة . وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون ، والاعتقاد بتعدد الارباب الذين يتحكمون في الحياة . ولقد يبدو هذا غريباً مضحكاً . ولكنه كان وما يزال . ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن اربابهم المتفرقة: « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »..كما قال عن جماعة من اهل الكتاب: « اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .. وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام، تعج بالارباب المختلفة ، بوصفها أرباباً صغاراً تقوم الى جانب كبير الآلهة كما يزعمون .

فإطلاق الربوبية في هذه السورة ، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً . هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة . لتتجه العوالم كلها الى رب واحد ، تقر له

بالسيادة المطلقة ، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الارباب .. ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم الى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة. والى أن هـــذه الرعاية لا تنقطع ابداً ولا تفتر ولا تغيب ، لا كما كان أرقى تصور فلسفي لأرسطو مثلاً يقول بأن الله أوجـد هذا الكون ثم لم يعد يهتم به . لأن الله أرقى من ان يفكر فيما هو دونه ! فهو لا يفكر إلا في ذاته ! وأرسطو — وهذا تصوره — هو أكبر الفلاسفة ، وعقله هو أكبر العقول !

لقد جاء الاسلام وفي العالم ركام من العقائـــد والتصورات والأساطير والفلسفات والاوهام والأفكار... يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة ، والفلسفة بالاسطورة .. والضمير الانساني تحت هـــذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون ، ولا يستقر منها على يقين :

وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور،هو ذلك الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها وصفاته وعلاقته بخلائقه ، ونوع الصلة بين الله والانسان على وجه الخصوص .

ولم يكن مستطاعاً ان يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون ، وفي أمر نفسه وفي منهج حياته ، قبـل ان يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته ، وقبل ان ينتهي الى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل .

ولا يدرك الانسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا الركام،وحتى يرود هذا التيه من العقائد والتصورات والاساطير والفلسفات والأوهام والأفكار التي جاء الاسلام فوجدها ترين على الضمير البشري ، والتي أشرنا الى طرف منها فيما تقـدم صغير . (وسيجيء في استعراض سور القرآن الكثير منها ، ممـا عالجه القرآن علاجاً وافياً شاملاً كاملاً) .

ومن ثم كانت عناية الاسلام الأولى موجهة الى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته ، وعلاقته بالخلائق وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين .

ومن ثم كان التوحيـد الكامل الخالص المجرد الشامل ، الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد.. هو قاعدة التصور التي جاء بها الاسلام، وظل يجلوها في الضمير، ويتتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد ، حتى يخلصها من كل غبش ،

ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق اليها وهم في صورة من الصور .. كذلك قال الاسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله وبخاصة ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة ، فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير .. مما يتعلق بهذا الأمر الخطير ، العظيم الأثر في الضمير الانساني ، وفي السلوك البشري سواء .

والذي يراجع الجهد المتطاول الذي بذله الاسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات الله وصفاته وعلاقته بمخلوقاته . هذا الجهد الذي تمثله النصوص القرآنية الكثيرة .. الذي يراجع هذا الجهد المتطاول دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل في ذلك التيه الشامل الذي كانت البشرية كلها تهيم فيه.. قد لا يدرك مدى الحاجة الى كل هذا البيان المؤكد المكرر ، والى كل هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير .. ولكن مراجعة ذلك الركام تكشف عن ضرورة ذلك الجهد المتطاول ، كما تكشف عن مدى عظمة الدور الذي قامت به هذه العقيدة – وتقوم – في تحرير الضمير البشري وإعتاقه . وإطلاقه من عناء التخبط بين شتى الأرباب وشتى الأوهام والأساطير !

وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها .. كل هذا لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات، والأساطير والفلسفات ! وبخاصة موضوع الحقيقة الالهية وعلاقتها بالعالم .. عندئذ تبدو العقيدة الاسلامية رحمة . رحمة حقيقية للقلب والعقل . رحمة بما فيها من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق .

* * *

« الرحمن الرحيم » .. هذه الصفة التي تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا في صلب السورة ، في آية مستقلة ، لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة ؛ ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه ، وبين الخالق ومخلوقاته .. إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء . إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة .. فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

إن الرب الاله في الاسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها كما تصورها اساطير الاغريق. ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الاساطير المزورة في « العهد القديم » كالذي جاء في اسطورة برج بابل في

الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين [1] .

« مالك يوم الدين » .. وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها ، كلية الاعتقاد بالآخرة .. والملك اقصى درجات الاستيلاء والسيطرة . ويوم الدين هو يوم الجزاء في الآخرة .. وكثيراً ما اعتقد الناس بألوهية الله، وخلقه للكون أول مرة؛ ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء .. والقرآن يقول عن بعض هؤلاء: « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله » .. ثم يحكي عنهم في موضع آخر : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد » !

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الاسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ؛ فلا تستبد بهم ضرورات الارض . وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات . ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود ، وفي مجال الارض المحصور. وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله ، في الارض او في الدار الآخرة سواء ، في طمأنينة لله ، وفي ثقة بالخير ، وفي إصرار على الحق ، وفي سعة وسماحة ويقين .. ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات او للرغائب ، والطلاقة الانسانية اللائقة ببني الانسان . بين الخضوع لتصورات الارض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية . مفرق الطريق بين الانسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده ، والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال .

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر . ومـا لم تطمئن قلوبهم الى ان جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير .

---

(١) « وكانت الارض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في ارض شنعار وسكنوا هناك . وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شياً . فكان لهم اللبن وكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الارض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون ان يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الارض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض . ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض».

وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها ، وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمداً على العوض الذي يلقاه فيها ..

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل . فهما صنفان مختلفان من الخلق ، وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء .. وهذا هو مفرق الطريق ..

* * *

« إياك نعبد وإياك نستعين » .. وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة . فلا عبادة إلا لله ، ولا استعانة إلا بالله .

وهنا كذلك مفرق طريق .. مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية ، وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل. التحرر من عبودية الأوهام ، والتحرر من عبودية النظم ، والتحرر من عبودية الأوضاع . وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد ، والله وحده هو الذي يُستعان ، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات ..

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية ، ومن القوى الطبيعية .

فأما القوى الانسانية – بالقياس الى المسلم – فهي نوعان : قوة مهتدية ، تؤمن بالله ، وتتبع منهج الله .. وهذه يجب أن يؤازرها ، ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح .. وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه . وهذه يجب أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها .

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية . فهي بضلالها عن مصدرها الأول – قوة الله – تفقد قوتها الحقيقية . تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها . وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب ، فما يلبث أن ينطفىء ويبرد ويفقد ناره ونوره ، مهما كانت كتلته من الضخامة . على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .. غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول ، وباستمدادها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعاً .

وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف التعرف والصداقة ، لا موقف

التخوف والعداء. ذلك أن قوة الانسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته، محكومتان بإرادة الله ومشيئته، متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه .

إن عقيدة المسلم توحي اليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً ؛ وأن سبيله الى كسب هذه الصداقة ان يتأمل فيها، ويتعرف اليها، ويتعاون وإياها، ويتجه معها الى الله ربه وربها. واذا كانت هذه القوى تؤذيه أحياناً، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف اليها ، ولم يهتدِ الى الناموس الذي يسيرها .

ولقد درج الغربيون — ورثة الجاهلية الرومانية — على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم : « قهر الطبيعة » .. ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله ، وبروح الكون المستجيب لله . فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم ، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبحة لله رب العالمين .. فيؤمن بأن هنالك علاقة اخرى غير علاقة القهر والجفوة . انه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعاً . خلقها كلها وفق ناموس واحد ، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وأنه سخرها للانسان ابتداء ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها . وأن على الانسان ان يشكر الله كلما هيأ له ان يظفر بمعونة من إحداها . فالله هو الذي يسخرها له ، وليس هو الذي يقهرها : « سخر لكم ما في الارض جميعاً » ...

وإذن فان الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة؛ ولن تقوم بينه وبينها المخاوف.. إنه يؤمن بالله وحده ، ويعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده . وهذه القوى من خلق ربه . وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ، فتبذل له معونتها ، وتكشف له عن أسرارها . فيعيش معها في كون مأنوس صديق ودود .. وما أروع قول الرسول ﷺ وهو ينظر الى جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » .. ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الانوك محمد ﷺ من ود وألفة وتجاوب ، بينه وبين الطبيعة في أضخم وأخشن مجاليها .

* * *

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية في التصور الاسلامي ؛ وتقرير الاتجاه الى الله وحده بالعبادة والاستعانة .. يبدأ في التطبيق العملي لها بالتوجه الى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها :

«إهدنا الصراط المستقيم .صراط الذين أنعمت عليهم ،غير المغضوب عليهم ولا الضالين» . .

« اهدنا الصراط المستقيم » . . وفقنا الى معرفة الطريق المستقيم الواصل ، ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته . . فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته . والتوجه الى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية الى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين . . وهي في حقيقتها هداية فطرة الانسان الى ناموس الله الذي ينسق بين حركة الانسان وحركة الوجود كله في الاتجاه الى رب العالمين .

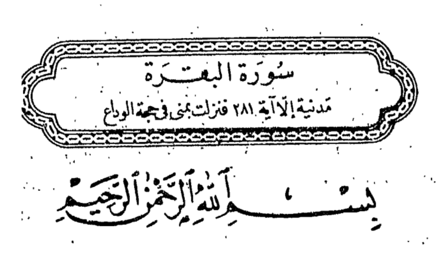
ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . . فهو طريق الذين قسم لهم نعمته . لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه . او الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلا اليه . . إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين . .

* * *

وبعد فهذه هي السورة المختارة للتكرار في كل صلاة ، والتي لا تصح بدونها صلاة . وفيها على قصرها تلك الكليات الاساسية في التصور الاسلامي ؛ وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور .

وقد ورد في صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن ابيه ، عن ابي هريرة عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل . . اذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين . قال الله : حمدني عبدي . واذا قال : الرحمن الرحيم . قال الله : أثنى عليّ عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدين . قال الله : مجدني عبدي . واذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » .

ولعل هذا الحديث الصحيح — بعدما تبين من سياق السورة — يكشف عن سر من اسرار اختيار السورة ليرددها المؤمن سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة ؛ او ما شاء الله ان يرددها كلما قام يدعوه في الصلاة . .



هذه السورة من اوائل ما نزل من السور بعد الهجرة . وهي أطول سور القرآن على الاطلاق . والمرجح ان آياتها لم تنزل متوالية كلها حتى اكتملت قبل نزول آيات من سور اخرى ؛ فمراجعة اسباب نزول بعض آياتهــا وبعض الآيات من السور المدنيــة الأخرى — وإن تكن هذه الأسباب ليست قطعية الثبوت — تفيد أن السور المدنيــة الطوال لم تنزل آياتها كلها متوالية ؛ إنما كان يحدث أن تنزل آيات من سورة لاحقة قبل استكمال سورة سابقة نزلت مقدماتها ؛ وأن المعول عليــه في ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول اوائلها — لا جميعها — وفي هذه السورة آيات من اواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا ، في حين أن الراجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة .

فأما تجميع آيات كل سورة في السورة ، وترتيب هذه الآيات ، فهو توقيفي موحى به . . روى الترمذي — بإسناده — عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قــال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين ، وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموهــا في السبع الطوال ؟ وما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ؛ فكان اذا نزل عليه الشيء دعــا بعض من كان يكتب ، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال أول مــا نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ؛ وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت انها منها ؛ وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا

أنهـا منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال .

فهـذه الرواية تبين ان ترتيب الآيات في كل سورة كان بتوقيف من رسول الله ﷺ وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل . وكان جبريل عليه السلام يلقـاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن ، وفي رواية فيدارسه القرآن ، فاذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة .. ومن الثابت ان رسول الله ﷺ وقد قرأ القرآن كله على جبريل – عليه السلام – كما أن جبريل قد قرأه عليه .. ومعنى هذا انها قرآه مرتبة آياته في سوره .

ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن ان لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس ! ولها موضوع رئيسي او عدة موضوعات رئيسية مشدودة الى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ؛ ويجعل سياقها يتناول هـذه الموضوعات من جوانب معينة . تحقق التناسق بينها وفق هـذا الجو . ولها إيقاع موسيقي خاص اذا تغير في ثنايا السياق فانما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة[1] .. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً . ولا يشذ عن هذه القاعده طوال السور كهذه السورة .

* * *

هذه السورة تضم عدة موضوعات . ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحـد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً .. فهي من ناحيـة تدور حول موقف بني اسرائيل من الدعوة الاسلامية في المدينـة ، واستقبالهم لها ، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها .. وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى .. وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في اول نشأتها؛ وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الارض ، بعـد ان تعلن السورة نكول بني اسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي

(١) يراجع فصل : « التناسق الفني » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

لابراهيم — عليه السلام — صاحب الحنيفية الاولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريـــد بني اسرائيل من هذا الشرف العظيم .. وكل موضوعات السورة تدور حول هـــذا المحور المزدوج بخطيـــه الرئيسيين ، كما سيجيء في استعراضها التفصيلي .

ولكي يتضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهـــة ، وبين خط سير الدعوة اول العهد بالمدينة ، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى .. يحسن ان نلقي ضوءاً على مجمل هذه الملابسات التي نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء. مع التنبيه الدائم الى ان هـــذه الملابسات في عمومها هي الملابسات التي ظلت الدعوة الاسلامية واصحابها يواجهونها — مع اختلاف يسير — على مر العصور وكر الدهور ؛ من أعدائها وأوليائها على السواء . مما يجعل هذه التوجيهات القرآنية هي دستور هـــذه الدعوة الخالدة ، ويبث في هذه النصوص حيـــاة تتجدد لمواجهة كل عصر وكل طور ؛ ويرفعها معالم للطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بهـــا في طريقها الطويل الشاق ، بين العداوات المتعددة المظاهر المتوحدة الطبيعة .. وهـــذا هو الاعجاز يتبدى جانب من جوانبه في هذه السمة الثابتة المميزة في كل نص قرآني .

لقد تمت هجرة الرسول ﷺ الى المدينـــة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم . تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة؛ وجعلتها إجراء ضرورياً لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره .. كان موقف قريش العنيد من الدعوة في مكة — وبخاصة بعد وفاة خديجة — رضي الله عنها — وموت أبي طالب كافل النبي وحاميه .. كان هذا الموقف قد انتهى الى تجميد الدعوة تقريباً في مكة وما حولها. ومع استمرار دخول أفراد في الاسلام على الرغم من جميع الاضطهادات والتدبيرات فان الدعوة كانت تعتبر قد تجمدت فعلاً في مكة وما حولها ، بموقف قريش منها ، وتحالفهم على حربهـــا بشتى الوسائل، مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار ، في ارتقاب نتيجة المعركة بين الرسول وعشيرتـــه الأقربين ، وعلى رأسهم ابو لهب وعمرو ابن هشام وأبو سفيان ابن حرب وغيرهم ممن يمتون بصلة القرابة القوية لصاحب الدعوة . وما كان هناك ما يشجع العرب في بيئة قبلية لعلاقات القرابة عندها وزن كبير ، على الدخول في عقيدة رجل تقف منه عشيرته هذا الموقف . وبخاصة ان عشيرته هذه هي التي تقوم بسدانة الكعبة ، وهي التي تمثل الناحية الدينية في الجزيرة !

ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة ، قاعدة تحمي هـذه العقيدة وتكفل لها الحرية ، ويتاح لها فيها ان تخلص من هذا التجميد التي انتهت اليه في مكة . حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة .. وهذا في تقديري كان هو السبب الاول والأهم للهجرة .

ولقد سبق الاتجاه الى يثرب ، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة ، عدة اتجاهات .. سبقها الاتجاه الى الحبشة ، حيث هاجر اليها كثير من المؤمنين الاوائل . والقول بأنهم هاجروا اليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند الى قرائن قوية . فلو كان الامر كذلك لهاجر إذن اقل الناس جاهاً وقوة ومنعـة من المسلمين . غير أن الامر كان على الضد من هـــذا ، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا . إنما هاجر رجـال ذوو عصبيات ، لهم من عصبيتهم — في بيئـة قبلية — ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنـــة ؛ وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين ، منهم جعفر ابن أبي طالب — وأبوه وفتيان بني هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبي ﷺ ومنهم الزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبو سلمة المخزومي ، وعثمان ابن عفان الأموي ... وغيرهم . وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبداً.. وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش ؛ وأبناؤهـــا الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم ، فراراً من الجاهلية ، تاركين وراءهم كل وشائج القربى ، في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفـــاً ، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة ، بنت أبي سفيان زعيم الجاهليـة ، وأكبر المتصدين لحرب للعقيدة الجديدة وصاحبها .. ولكن مثل هذه الاسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة الى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة ، او آمنة على الأقل للدعوة الجديدة . وبخاصة حين نضيف الى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة . ذلك الاسلام الذي لم يمنعه من إشهاره نهائيـاً إلا ثورة البطارقة عليه ، كما ورد في روايات صحيحة .

كذلك يبدو اتجاه الرسول ﷺ الى الطائف محاولة أخرى لإيجـاد قاعدة حرة او آمنة على الأقل للدعوة .. وهي محاولة لم تكلل بالنجـاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله ﷺ أسوأ استقبال ، وسلطوا عليه سفلهم وصبيانهم يرجمونـه بالحجارة ،

حتى أدموا قدميه الشريفتين ، ولم يتركوه حتى آوى الى حائط (أي حديقة) لعتبة وشيبة ابني ربيعة .. وهنالك انطلق لسانه بذلك الدعاء الخالص العميق : « اللهم أشكو اليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي . الى من تكلني ؟ الى عدو ملكته أمري ! أم بعيد يتجهمني ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي . ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تنزل بي غضبك ، او تحل عليّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

بعد ذلك فتح الله على الرسول ﷺ وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب ، فكانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية . وهما ذواتا صلة قوية بالموضوع الذي نعالجه في مقدمة هذه السوره ، وبالملابسات التي وجدت حول الدعوة في المدينة .

وقصة ذلك في اختصار: أن النبي ﷺ التقى قبل الهجرة الى يثرب بسنتين بجماعة من الخزرج في موسم الحج ، حيث كان يعرض نفسه ودعوته على الوافدين للحج ؛ ويطلب حامياً يحميه حتى يبلغ دعوة ربه . وكان سكان يثرب من العرب – الأوس والخزرج – يسمعون من اليهود المقيمين معهم ، أن هنالك نبياً قد أظل زمانه ؛ وكانت يهود تستفتح به على العرب ، أي تطلب أن يفتح لهم على يديه ، وأن يكون معهم على كل من عداهم . فلما سمع وفد الخزرج دعوة النبي ﷺ قال بعضهم لبعض : تعلمنّ والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه . وأجابوه لما دعاهم . وقالوا له : إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى الله أن يجمعهم بك .. ولما عادوا الى قومهم ، وعرضوا الأمر عليهم ، ارتاحوا له ، ووافقوا عليه .

فلما كان العام التالي وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج ، فالتقوا بالنبي ﷺ وبايعوه على الاسلام . وقد أرسل معهم من يعلمهم أمر دينهم .

وفي الموسم التالي وفد عليه جماعة كبيرة من الأوس والخزرج كذلك ، فطلبوا أن يبايعوه ، وتمت البيعة بحضور العباس عم النبي ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم . وتسمى هذه البيعة الثانية بيعة العقبة الكبرى . ومما وردت به الروايات في هذه البيعة ما قاله محمد ابن كعب القرظي : قال عبد الله بن رواحة –

رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك مـا شئت . فقال : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ؛ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . قال : فمالنا اذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل !

.. وهكذا أخذوا الامر بقوة.. ومن ثم فشا الاسلام في المدينة، حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الاسلام . وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون الى المدينة تباعاً ، تاركين وراءهم كل شيء، ناجين بعقيدتهم وحدها ، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، من الإيثار والإخاء مـا لم تعرف له الانسانية نظيراً قط . ثم هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق . هاجر الى القـاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها من قبل طويلاً .. وقامت الدولة الإسلامية في هـــذه القاعدة منـذ اليوم الاول لهجرة الرسول ﷺ .

* * *

من أولئك السابقين من المهاجرين والانصار تكونت طبقة ممتـازة من المسلمين نوّه القرآن بها في مواضع كثيرة .. وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقوّمات الايمان ، وهي تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقاً . ولكنها أولاً تصف ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائماً بالمدينة حينذاك : « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدىً للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بمـا أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون » ..

ثم نجد بعدها مباشرة في السياق وصفاً للكفـار ؛ وهو يمثل مقومات الكفر على الاطلاق . ولكنه أولاً وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك ، سواء في مكة او فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » ..

كذلك كانت هناك طائفة المنافقين . ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التي أنشأتها الهجرة النبوية الى المدينة في ظروفها التي تمت فيها ، والتي أشرنا اليها من قبل ؛ ولم يكن لها وجود بمكة . فالاسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة ،

بل لم تكن له عصبـة يخشاها أهل مكة فينافقونها . على الضد من ذلك كان الاسلام مضطهداً ، وكانت الدعوة مطاردة، وكان الذين يغامرون بالانضمام الى الصف الاسلامي هم المخلصون في عقيدتهم ، الذين يؤثرونها على كل شيء ويحتملون في سبيلهـا كل شيء . فأما في يثرب التي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة – أي مدينة الرسول – فقد أصبح الاسلام قوة يحسب حسابها كل أحد؛ ويضطر لمصانعتها كثيراً او قليلاً – وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصاراً عظيماً – وفي مقـدمة من كان مضطراً لمصانعتها نفر من الكبراء،دخل أهلهم وشيعتهم في الاسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك ان يتظاهروا باعتنـاق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم. ومن هؤلاء عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكاً عليهم قبيل مقدم الاسلام على المدينة ..

وسنجد في أول السورة وصفاً مطولاً لهؤلاء المنافقين ، ندرك من بعض فقراته أن المعنيّ به في الغـالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التظاهر بالاسلام ، ولم ينسوا بعد ترفعهم على جمـاهير الناس ، وتسمية هـذه الجماهير بالسفهاء على طريقـة العلية المتكبرين ! : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ؛ ولهم عذاب أليم بمـا كانوا يكذبون . واذا قيـل لهم : لا تفسدوا في الارض قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . واذا قيل لهم: آمنوا كما آمن النـاس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنـا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين. مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلمـا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . او كصيّب من السماء فيـه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلمـا أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شيء قدير » .

وفي ثنايا هـذه الحملة على المنـافقين – الذين في قلوبهم مرض – نجد إشارة الى

« شياطينهم » . والظاهر من سياق السورة ومن سياق الاحداث في السيرة أنها تعني اليهود ، الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد . أما قصتهم مع الدعوة فنلخصها في هذه السطور القليلة :

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة ؛ وكان لهـذا الاصطدام أسبابه الكثيرة .. كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب – الأوس والخزرج – ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلاً لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء ، إلا أنهم كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب مـا لديهم من كتاب . ثم كان هنالك ظرف مواتٍ لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام – وهي البيئة التي يجد اليهود دائماً لهم فيها عملاً ! – فلما أن جاء الاسلام سلبهم هذه المزايا جميعاً .. فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه . ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم ، ووحـد الصف الاسلامي الذي ضم الأوس والخزرج،وقد اصبحوا منذ اليوم يعرفون بالانصار ، الى المهاجرين ، وألف منهم جميعاً ذلك المجتمع المسلم المتضامن المتراص الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيراً على الاطلاق .

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختـار ، وأن فيهم الرسالة والكتاب . فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الاخير فيهم كما توقعوا دائماً . فلما أن جـاء من العرب ظلوا يتوقعون ان يعتبرهم خارج نطاق دعوته ، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب ! فلما وجدوه يدعوهم – أول ما يدعو – الى كتاب الله ، بحكم انهم أعرف به من المشركين .. وأجدر بالاستجابة له من المشركين .. أخذتهم العزة بالإثم ، وعدّوا توجيه الدعوة اليهم إهانة واستطالة !

ثم إنهم حسدوا النبي ﷺ حسداً شديداً . حسدوه مرتين : مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب – وهم لم يكونوا يشكون في صحته – وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة .

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الاسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى : ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المـدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف ! هذا او يستجيبوا للدعوة الجديدة ويذوبوا في المجتمع الاسلامي . وهما امران – في تقديرهم – أحلاهما مر !

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الاسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة، (وسور غيرها كثيرة) في تفصيل دقيق ، نقتطف هنا بعض الآيات التي تشير اليه .
جاء في مقدمة الحديث عن بني إسرائيل هذا النداء العلوي لهم : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم . ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ » .. وبعد تذكيرهم طويلاً بمواقفهم مع نبيهم موسى – عليه السلام – وجحودهم لنعم الله عليهم،وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم.. ونكثهم لعهد الله معهم .. جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ » .. وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ » .. « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » ... « وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله. قالوا : نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » ... « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » ... « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » ... « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » ... « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم » ... « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ... الخ الخ .

وكانت معجزة القرآن الخالدة ان صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الاسلام ومن بعده الى يومنا هذا . مما جعل القرآن يخاطبهم – في عهد النبي ﷺ – كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى – عليه السلام–

وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة . سماتهم هي هي ، ودورهم هو هو ، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان ! ومن ثم يكثر الالتفات في السياق من خطاب قوم موسى ، الى خطاب اليهود في المدينة ، الى خطاب أجيال بين هذين الجيلين . ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها . وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغداً كما استقبلتها بالأمس تماماً ! وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة ، تجاه اعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دس وكيد ، وحرب منوعة المظاهر ، متحدة الحقيقة !

* * *

وهذه السورة التي تضمنت هذا الوصف ، وهذا التنبيه ، وهذا التحذير ، تضمنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الارض بعد نكول بني اسرائيل عن حملها قديماً ، ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيراً . .

تبدأ السورة – كما أسلفنا – بوصف تلك الطوائف التي كانت تواجه الدعوة اول العهد بالهجرة – بما في ذلك تلك الإشارة الى الشياطين اليهود الذين يرد ذكرهم فيما بعد مطولاً – وتلك الطوائف هي التي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك . ثم تمضي السورة على محورها بخطيه الأساسيين الى نهايتها . في وحدة ملحوظة ، تمثل الشخصية الخاصة للسورة ، مع تعدد الموضوعات التي تتناولها وتنوعها .

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى: المتقين والكافرين والمنافقين وبعد الاشارة الضمنية لليهود الشياطين .. نجد دعوة الناس جميعاً الى عبادة الله والايمان بالكتاب المنزل على عبده . وتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله . وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة .. ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون ! هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شيء عليم » . .

وعند هذا المقطع الذي يشير الى خلق ما في الارض جميعاً للناس تجيء قصة استخلاف آدم في الارض: « وإذ قال ربك للملائكة: اني جاعل في الارض خليفة » . . وتمضي القصة تصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان حتى تنتهي بعهد الاستخلاف

— وهو عهد الايمان — : « قلنا : أهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني اسرائيل — أشرنا الى فقرات منها فيما سبق — تتخللها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله الله مصدقاً لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى — عليه السلام — وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الاول من السورة .

ومن خلال هذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بني اسرائيل للاسلام ورسوله وكتابه .. لقد كانوا أول كافر به . وكانوا يلبسون الحق بالباطل . وكانوا يأمرون الناس بالبر — وهو الايمان — وينسون انفسهم . وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه . وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الايمان واذا خلا بعضهم الى بعض حذّر بعضهم بعضاً من إطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته ! وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفاراً . وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم — كما كان النصارى يدعون هذا أيضاً — وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل — عليه السلام — بما أنه هو الذي حمل الوحي الى محمد دونهم ! وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى — كما فعلوا عند تحويل القبلة — وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين . كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين .

ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه ؛ وتذكرهم بمواقفهم المماثلة من نبيهم موسى — عليه السلام — ومن شرائعهم وأنبيائهم . على مدار أجيالهم . وتخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل ، وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل !

وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم ، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد ، الموؤفة الطبع . كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة ابراهيم . وتبين أن ورثة ابراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته ، ويتقيدون بعهده مع ربه ؛ وأن وراثة ابراهيم قد انتهت الآن الى محمد ﷺ والمؤمنين به ، بعدما انحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة ، والخلافة في الأرض بمنهج الله ؛ ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه . وأن هذا كان استجابة

لدعوة ابراهيم واسماعيل – عليهما السلام – وهما يرفعان القواعد من البيت : « ربنـا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنـا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

وعند هـذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه الى النبي ﷺ والى الجماعة المسلمة من حوله ؛ حيث يأخذ في وضع الأسس التي تقوم عليها حيـاة هذه الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الارض ، وفي تمييز هـذه الجماعة بطابع خاص ، وبمنهج في التصور وفي الحياة خاص .

ويبدأ في هـذا بتعيين القبلة التي تتجه اليها هذه الجماعة . وهي البيت المحرم الذي عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه ويطهراه ليُعبد فيه الله وحده .. هذه القبلة التي كان النبي ﷺ يرغب ولا يصرح في الاتجاه اليها : « قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاهـا ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ..

ثم تمضي السورة في بيان المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة . منهج التصور والعبادة ، ومنهج السلوك والمعاملة ، تبين لهـا أن الذين يُقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحيـاء . وأن الاصابة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ليس شراً يراد بها ، إنمـا هو ابتلاء ، ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه . وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء والله يعدهم مغفرة منـه وفضلاً . وأن الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أوليـاؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمـات .. وتبين لهم بعض الحلال والحرام في المطـاعم والمشارب . وتبين لهم حقيقة البر لا مظاهره وأشكاله . وتبين لهم أحكام القصاص في القتلى . وأحكام الوصية . وأحكام الصوم . وأحكام الجهـاد . وأحكام الحج . وأحكام الزواج والطلاق مع التوسع في دستور الأسرة بصفة خاصة . وأحكام الصدقة وأحكام الربا . وأحكام الدين والتجارة ...

وفي مناسبات معينة يرجع السياق الى الحديث عن بني اسرائيل من بعد موسى . وعن حلقات من قصة ابراهيم . ولكن جسم السورة – بعد الجزء الاول منهـا – ينصرف الى بناء الجماعة المسلمة ، وإعدادها لحمل أمانة العقيدة ، والخلافـة في الارض

بمنهج الله وشريعته . وتمييزها بتصورها الخاص للوجود، وارتباطها بربها الذي اختارها لحمل هذه الأمانة الكبرى .

* * *

وفي النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها ، فيبين طبيعة التصور الايماني، وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم ، وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه . مع السمع والطاعة : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » ..

ومن ثم يتناسق البدء والختام ، وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الايمان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«أَلَمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

«إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ: آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٦ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٧ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ٨ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ٩ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ، وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا كَمَا آمَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوا: أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ ٱلسُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ١١ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ١٢ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٣ أُولَٰئِكَ

ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ [14] صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ [15] أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَافِرِينَ [16] يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [17] ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [18] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا : هَـٰذَا ٱلَّذِي

رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، وَأُتوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَة ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا ، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهٰذَا مَثَلاً ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ [١٩] ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ، أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ، وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢٠] هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ، ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ...

في هـذا المقطع ، الذي يكوّن افتتاح السورة الكبيرة ، نجد الملامح الأساسية للطوائف التي واجهتها الدعوة في المدينة باستثناء طائفة اليهود التي ترد إشارة صغيرة لها ، ولكنها كافية ، فإن تسميتهم بشياطين المنافقين تشير الى الكثير من صفاتهم ، ومن حقيقة دورهم ، حتى يرد التفصيل الكامل بعد قليل .

وفي رسم هذه الملامح نجد خصائص التعبير القرآنية ، التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الخط واللون ، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ؛ ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة .

وهنا .. في عدد قليل من الكلمات والعبارات في اول السورة ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس . كل نمط منها نموذج حي لمجموعات ضخمة من البشر نموذج

أصيل عميق متكرر في كل زمان ومكان . حتى مـــا تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة .. وهذا هو الإعجاز ..

في تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هـذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب المفصل شيئاً وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع .

فإذا انتهى السياق من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس .. الناس جميعاً .. الى الى الصورة الأولى ؛ وناداهم .. ناداهم كافـة .. أن يفيئوا إليها . أن يفيئوا الى عبادة الله الواحد ، والخالق الواحد ، والرازق الواحد ، بـــلا شركاء ولا أنداد . وتحدى الذين يرتابون في رسالة النبي ﷺ وتنزيل الكتاب عليه أن يأتوا بسورة من مثله . وأنذرهم إذا تولوا عذابا مفزعاً مرهوباً؛ وبشر المؤمنين وصور ما ينتظرهم من نعيم مقيم.

ثم أخذ يرد على اليهود والمنافقين الذين استنكروا ضرب الله للأمثال في القرآن ، واتخذوا منه وسيلة للتشكيك في أنه منزل من عند الله . وحذرهم مـــا وراء ضرب الأمثال . أن يزيدهم ضلالاً – كما يزيـد المؤمنين هدى – ثم استنكر أن يكفروا بالله الحيي المميت الخالق المدبر ، العليم بكل شيء في هـذا الوجود ، وهو الذي أنعم على البشر فخلق لهم ما في الارض جميعاً . واستخلفهم في هذا الملك الطويل العريض .

تلك مجمل الخطوط الرئيسية في هذا الدرس الأول من سورة البقرة . فلنحاول أن نتناول هذا الإجمال بشيء من التفصيل .

* * *

تبدأ السورة بهـذه الأحرف الثلاثة المقطعة : « ألف. لام. ميم » . يليها الحديث عن كتاب الله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » ..

ومثل هذه الأحرف يجيء في مقدمة بعض السور القرآنية . وقـــد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة . نختار منها وجهاً . إنها إشارة للتنبيه الى أن هـــذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهي في متناول المخاطبين به من العرب . ولكنه– مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جواباً !

والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعاً . وهو مثل صنع الله في كل

شيء وصنع الناس .. إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات . فإذا أخذا الناس هذه الذرات فقصارى مـــا يصوغونه منها لبنة أو آجرة . أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز . كائناً في دقته ما يكون .. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة . تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز .. سر الحيــاة .. ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر .. وهكذا القرآن .. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً ، ويجعل منها الله قرآناً وفرقاناً ، والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض .. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة!

« ذلك الكتاب لا ريب فيه » ..

ومن أين يكون ريب أو شك ؛ ودلالة الصدق واليقين كامنة في هذا المطلع، ظاهرة في عجزهم عن صياغة مثله ، من مثـــل هذه الأحرف المتداولة بينهم ، المعروفة لهم من لغتهم ؟

« ذلك الكتاب لا ريب فيه .. هدى للمتقين » ..

الهدى حقيقته ، والهدى طبيعته ، والهدى كيانه ، والهدى ماهيتــه .. ولكن لمن ؟ لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً ؟.. للمتقين.. فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب . هي التي تفتح مغاليق القلب له فيدخل ويؤدي دوره هناك . هي التي تهيء لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب .

لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم . بقلب خالص. ثم أن يجيء اليه بقلب يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة ، او أن تستهويه ضلالة .. وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ، ويسكبها في هــذا القلب الذي جاء اليه متقياً ، خائفاً ، حساساً ، مهيأ للتلقي .. ورد أن عمر ابن الخطاب — رضي الله عنه — سأل أبي ابن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى ! قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت . قال : فذلك التقوى .

فذلك التقوى . حساسية في الضمير ، وشفافيــة في الشعور . وخشية مستمرة . وحـــذر دائم . وتوق لأشواك الطريق .. طريق الحيـــاة .. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، وأشواك المطامع والمطامح ، وأشواك المخـــاوف والهواجس ، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء ، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً

ولا ضراً . وعشرات غيرها من الأشواك !

ثم يأخذ السياق في بيان صفة المتقين ؛ وهي صفة السابقين من المؤمنين في المدينة ، كما أنها صفة الخلص من مؤمني هذه الأمة في كل حين :

« الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون » . .

إن السمة الأولى للمتقين هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة . الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب ، والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة ، واليقين بعد ذلك بالآخرة . . هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الاسلامية ، وتمتاز بـه النفس المؤمنة بهذه العقيدة ، والجـدير بأن تكون عليـه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعاً ، ولتهيمن على البشرية جميعاً ، وليعيش الناس في ظلالهـا بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة ، شاملة للشعور والعمل ، والإيمان والنظام .

فإذا نحن أخذنا في تفصيل هذه السمة الأولى للمتقين الى مفرداتها التي تتألف منها، انكشفت لنا هذه المفردات عن قيم أساسية في حياة البشرية جميعاً . .

« الذين يؤمنون بالغيب » . . فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنهـا ، وصدر عنهـا هذا الوجود ؛ ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر مـا وراء الحس من حقـائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات .

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الانسان ، فيتجاوز مرتبـة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، الى مرتبـة الانسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس — او الأجهزة التي هي امتداد للحواس — وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الانسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون ومـا وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنهـا بعيدة الأثر في حياته على الأرض ؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعمـاقه ، ويشعر أن مـداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود ، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه ، حقيقة أكبر من الكون ، هي التي صدر عنها ، واستمد من

وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول .

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له ، وما لم توهب القدرة للإحاطة به ، وما لا يجدي شيئاً أن تنفق فيه . إن الطاقة الفكرية التي وهبها الانسان ، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض ، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة ، تنظر فيها ، وتتعمقها وتتقصاها ، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجملها ، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود ، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول . فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها ، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول .. فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة اولاً ، ومحاولة عابثة أخيراً . فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال . وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال .. ومتى سلم العقل البشري بالبديهية العقلية الاولى ، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق ، لزمه — احتراماً لمنطقه ذاته — أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل ؛ وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون ؛ وأن عليه أن يكل الغيب الى طاقة اخرى غير طاقة العقل ؛ وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة.. وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون ، وهو الصفة الاولى من صفات المتقين .

لقد كان الايمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الانسان عن عالم البهيمة . ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان ؛ كجماعة الماديين في كل زمان ، يريدون أن يعودوا بالانسان القهقرى .. الى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ! ويسمون هذا « تقدمية » وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها ، فجعل صفتهم المميزة ، صفة : « الذين يؤمنون بالغيب » والحمد لله على نعمائه ، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين !

« ويقيمون الصلاة » .. فيتجهون بالعبادة لله وحده ، ويرتفعون بهذا عن عبادة العباد ، وعبادة الأشياء . يتجهون الى القوة المطلقة بغير حدود ، ويحنون جباههم لله لا للعبيد والقلب الذي يسجد لله حقاً ، ويتصل به على مدار الليل والنهار ، يستشعر

أنه موصول السبب بواجب الوجود ، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض ، ويحس أنه أقوى من الخاليق لأنه موصول بخالق الخاليق .. وهذا كله مصدر قوة للضمير ، كما أنه مصدر تحرج وتقوى ، وعامل هـام من عوامل تربية الشخصية ، وجعلها ربانية التصور ، ربانية الشعور ، ربانية السلوك .

« ومما رزقناهم ينفقون » .. فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم ، لا من خلق أنفسهم ؛ ومن هـــذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عيال الخالق ، والشعور بالآصرة الانسانية ، وبالأخوة البشرية .. وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح ، وتزكيتها بالبر . وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن ، وأنها تؤمن العاجز والضعيف والقاصر ، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس ، لا بين أظفار ومخالب ونيوب !

والانفاق يشمل الزكاة والصدقة ، وسائر مـــا ينفق في وجوه البر . وقد شرع الانفـاق قبل أن تشرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه . وقـد ورد في حديث رسول الله ﷺ بإسناده لفاطمة بنت قيس « إن في المال حقاً سوى الزكاة [1] » .. وتقرير المبدإ على شموله هو المقصود في هـــذا النص السابق على فريضة الزكاة .

« والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك » .. هي الصفة اللائقة بالأمة المسلمة ، وارثة العقائد السماوية ، ووارثة النبوات منـذ فجر البشرية ، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة ، وحادية موكب الايمان في الأرض الى آخر الزمان..وقيمة هـذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينهـا ، ووحدة رسلها ، ووحدة معبودها .. قيمتها هي تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ما داموا على الطريق الصحيح .. قيمتها هي الاطمئنان الى رعـــاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها . هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدي واحد . قيمتها هي الاعتزاز بالهدي الذي تتقلب الأيام والأزمان ، وهو ثابت مطرد ، كالنجم الهادي في دياجير الظلام .

« وبالآخرة هم يوقنون» .. وهذه خاتمة السمات . الخاتمة التي تربط الدنيا بالآخرة ،

---

(١) اخرجه الترمذي .

والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ؛ والتي تشعر الانسان انه ليس لقى مهملا ، وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى ؛ وأن العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفيء الى العمل الصالح ، والى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف .

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية انما هي هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود .

وكل صفة من هذه الصفات — كما رأينا — ذات قيمة في الحياة الانسانية . ومن ثم كانت هي صفات المتقين. وهناك تساوق وتناسق بين هذه الصفات جميعاً ، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة . فالتقوى شعور في الضمير ، وحالة في الوجدان ، تنبثق منها اتجاهات وأعمال ؛ وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ؛ وتصل الإنسان بالله في سره وجهره . وتشف معها الروح فتقل الحجب بينها وبين الكلي الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة ، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول . ومتى شفت الروح وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن ، فإن الإيمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب السائرة ، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه. ومع التقوى والإيمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها ، وجعلها صلة بين العبد والرب . ثم السخاء بجزء من الرزق اعترافاً بجميل العطاء ، وشعوراً بالإخاء . ثم سعة الضمير لموكب الإيمان العريق ، والشعور بآصرة القربى لكل مؤمن ولكل نبي ولكل رسالة ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين .. وهذه كانت صورة الجماعة المسلمة التي قامت في المدينة يوم ذاك ، مؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وكانت هذه الجماعة بهذه الصفات شيئاً عظيماً. شيئاً عظيماً حقاً بتمثل هذه الحقيقة الإيمانية فيها . ومن ثم صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة في الأرض ، وفي حياة البشر جميعاً.. ومن ثم كان هذا التقرير :

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ..

وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا . والطريق للهدى والفلاح هو هذا الطريق المرسوم .

* * *

فأما الصورة الثانية فهي صورة الكافرين . وهي تمثل مقومات الكفر في كل أرض وفي كل حين :

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » ..

وهنا نجد التقابل تاماً بين صورة المتقين وصورة الكافرين .. فإذا كان الكتاب بذاته هدى المتقين ، فإن الإنذار وعدم الإنذار سواء بالقياس الى الكافرين . إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين ، والوشائج التي تربطهم بالوجود وبخالق الوجود ، وبالظاهر والباطن والغيب والحاضر .. إن هذه النوافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا . وإن الوشائج الموصولة كلها هناك ، مقطوعة كلها هنا :

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ختم عليها فلا تصل إليها حقيقة من الهدى ولا صدى .

« وعلى أبصارهم غشاوة » .. فلا نور يوصوص لها ولا هدى . ! وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم جزاء وفاقاً على استهتارهم بالإنذار ، حتى تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار .

إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار ..

« ولهم عذاب عظيم » .. وهي النهاية الطبيعية للكفر العنيد ، الذي لا يستجيب للنذير ؛ والذي يستوى عنده الإنذار وعدم الإنذار ؛ كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد .

* * *

ثم ننتقل — مع السياق — الى الصورة الثالثة أو الى النموذج الثالث :

إنها ليست في شفافية الصورة الأولى وسماحتها . وليست في عتامة الصورة الثانية وصفاقتها . ولكنها تتلوى في الحس . وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين .. إنها صورة المنافقين :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض ،

قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهـم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . وإذا خـلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » ..

لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة ؛ ولكننا حـين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجاً مكروراً في أجيال البشرية جميعاً . نجد هذا النوع من المنافقين من علية الناس الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالايمان الصريح ، أو يجدون في نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحق بالإنكار الصريح . وهم في الوقت ذاتـه يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس ، وعلى تصورهم للأمور ! ومن ثم نميل الى مواجهة هذه النصوص كما لو كانت مطلقة من مناسبتها التاريخية ، موجهة الى هذا الفريق من المنافقين في كل جيل . والى صميم النفس الانسانية الثابت في كل جيل .

إنهم يدّعون الايمان بالله واليوم الآخر . وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين . إنمـا هم منافقون لا يجرؤون على الانكار والتصريح بحقيقة شعورهم في مواجهة المؤمنين .

وهم يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على خداع هؤلاء البسطاء ؛ ولكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم ، فهم لا يخادعون المؤمنين ، إنمـا يخادعون الله كذلك أو يحاولون :

« يخادعون الله والذين آمنوا » ..

وفي هذا النص وأمثاله نقف أمام حقيقة كبيرة ، وأمام تفضل من الله كريم .. تلك الحقيقة هي التي يؤكدها القرآن دائماً ويقررها،وهي حقيقة الصلة بين اللهوالمؤمنين. إنه يجعل صفهم صفه ، وأمرهم أمره ، وشأنهم شأنه . يضمهم سبحانه اليه ، ويأخذهم في كنفه ، ويجعل عدوهم عدوه ، وما يوجه اليهم من مكر موجهاً اليه — سبحانه — وهذا هو التفضل العلوي الكريم.. التفضل الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم الىهذا المستوى السامق ؛ والذي يوحي بأن حقيقة الايمـان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق ، والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها ، وهو يرى الله — جـل شأنه — يجعل قضيته هي قضيته ، ومعركته هي معركته، وعدوه هو عدوه،ويأخذه في صفه ، ويرفعـه الى جواره الكريم .. فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم

وأذاهم الصغير ؟!

وهو في ذات الوقت تهديد رعيب للذين يحاولون خداع المؤمنين والمكر بهم ، وإيصال الأذى اليهم . تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هي مع الله القوي الجبار القهار . وأنهم انما يحاربون الله حين يحاربون أولياءه ، وإنما يتصدون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة .

وهذه الحقيقة من جانبيها جديرة بأن يتدبرها المؤمنون ليطمئنوا ويثبتوا ويمضوا في طريقهم لا يبالون كيد الكائدين ، ولا خـــداع الخادعين ، ولا أذى الشريرين ، ويتدبرها أعداء المؤمنين فيفزعوا ويرتاعوا ويعرفوا من الذي يحاربونه ويتصدون لنقمته حين يتصدون للمؤمنين . .

ونعود الى هؤلاء الذين يخادعون الله والذين آمنوا بقولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر. ظانين في أنفسهم الذكاء والدهاء . . ولكن يا للسخرية ! يا للسخرية التي تنصب عليهم قبل أن تكتمل الآية :

« وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون » . .

إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور ! إن الله بخداعهم عليم؛ والمؤمنون في كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم . أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها. يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق، ووقوهـا مغبة المصارحة بالكفر بين المؤمنين . وهم في الوقت ذاته يوردونهـا موارد التهلكة بالكفر الذي يضمرونه ، والنفاق الذي يظهرونه. وينتهون بها الى شر مصير!

ولكن لماذا يحاول المنافقون هذه المحاولة ؟ ولماذا يخادعون هذا الخداع ؟

« في قلوبهم مرض » . .

في طبيعتهم آفة . في قلوبهم علة. وهذا ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم . ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما هم فيه :

« فزادهم الله مرضاً » . .

فالمرض ينشىء المرض ، والانحراف يبـدأ يسيراً ، ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد . سنة لا تتخلف . سنة الله في الأشياء والأوضاع ، وفي المشاعر والسلوك . فهم صائرون اذن الى مصير معلوم . المصير الذي يستحقه من يخادعون الله والمؤمنين:

« ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » . .

وصفة أخرى من صفاتهم – وبخاصة الكبراء منهم الذين كان لهم في أول العهد بالهجرة مقام في قومهم ورياسة وسلطان كعبد الله بن أبي بن سلول – صفة العناد وتبرير ما يأتون من الفساد، والتبجح حين يأمنون أن يؤخذوا بما يفعلون :

« وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض، قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون » ..

انهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون اليهما السفه والادعاء : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض » .. لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه الى التبجح والتبرير : « قالوا : إنما نحن مصلحون » ..

والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون : انهم مصلحون، كثيرون جداً في كل زمان . يقولونها لأن الموازين مختلة في أيديهم . ومتى اختل ميزان الاخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم . والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب الى قاعدة ربانية ..

ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق :

« ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون » ..

ومن صفتهم كذلك التطاول والتعالي على عامة الناس، ليكسبوا لأنفسهم مقاماً زائفاً في أعين الناس :

« وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء، ولكن لا يعلمون » ..

وواضح أن الدعوة التي كانت موجهة اليهم في المدينة هي أن يؤمنوا الإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء . إيمان المخلصين الذين دخلوا في السلم كافة، وأسلموا وجوههم لله، وفتحوا صدورهم لرسول الله ﷺ يوجههم فيستجيبون بكليتهم مخلصين متجردين .. هؤلاء هم الناس الذين كان المنافقون يدعون ليؤمنوا مثلهم هذا الايمان الخالص الواضح المستقيم ..

وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول ﷺ ويرونه خاصاً بفقراء الناس غير لائق بالعلية ذوي المقام ! ومن ثم قالوا : قولتهم هذه : « أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » .. ومن ثم جاءهم الرد الحاسم والتقرير الجازم :

« ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون »..

ومتى علم السفيه أنه سفيه ؟ ومتى استشعر المنحرف أنه بعيد عن المسلك القويم؟!

ثم تجيء السمة الأخيرة التي تكشف عن مدى الارتباط بين المنافقين في المدينة واليهود الحانقين .. إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، والسفه والادعاء ، إنما يضيفون اليها الضعف واللؤم والتآمر في الظلام :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم، انما نحن مستهزئون » ..

وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيء براعة . وهو في حقيقته ضعف وخسة . فالقوي ليس لئيماً ولا خبيثاً ، ولا خادعاً ولا متآمراً ولا غمازاً في الخفاء لمازاً . وهؤلاء المنافقون الذين كانوا يجبنون عن المواجهة ، ويتظاهرون بالايمان عند لقاء المؤمنين ، ليتقوا الأذى ، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى .. هؤلاء كانوا اذا خلوا الى شياطينهم — وهم غالباً — اليهود الذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الاسلامي وتفتيته ، كما أن هؤلاء كانوا يجدون في اليهود سنداً وملاذاً.. هؤلاء المنافقون كانوا « اذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم انما نحن مستهزئون » — اي بالمؤمنين — بما نظهره من الايمان والتصديق !

وما يكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد ما يهد الرواسي :

« الله يستهزىء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون » ..

وما أبأس من يستهزىء به جبار السماوات والأرض وما أشقاه !! وإن الخيال ليمتد الى مشهد مفزع رعيب ، والى مصير تقشعر من هوله القلوب .

وهو يقرأ : « الله يستهزىء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون ».. فيدعهم يخبطون على غير هدى في طريق لا يعرفون غايته ، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته ، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ ، غافلة عن المقبض المكين .. وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير .

وهنا كذلك تبدو تلك الحقيقة التي أشرنا من قبل اليها . حقيقة تولي الله — سبحانه — المعركة التي يراد بها المؤمنون . وما وراء هذا التولي من طمأنينة كاملة لأولياء الله ، ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين ، المتروكين في عما هم يخبطون ،

المخدوعون بمـــد الله لهم في طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت في عدوانهم ، والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك ، وهم غافلون يعمهون !

والكلمة الأخيرة التي تصور حقيقة حالهم ، ومدى خسرانهم :

« اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .. فلقـــد كانوا يملكون الهدى لو أرادوا . كان الهدى مبذولاً لهم . وكان في أيديهم . ولكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى » ، كأغفل ما يكون المتجرون :

« فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » ..

* * *

ولعلنا نلمح أن الحيز الذي استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة قـــد جاء أفسح من الحيز الذي استغرقه رسم الصورة الأولى والصورة الثانية ..

ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعـــاني .. الصورة الأولى صورة النفس الصافيـــة المستقيمة في اتجاهها والصورة الثانية صورة النفس المعتمـــة السادرة في اتجاهها . أمـــا الصورة الثالثة فهي صورة النفس الملتوية المريضة المعقدة المقلقلة . وهي في حاجـــة الى مزيد من اللمسات ، ومزيد من الخطوط كيما تتحدد وتعرف بسماتها الكثيرة .

على أن هذه الإطالة توحي كذلك بضخامة الدور الذي كان يقوم به المنافقون في المدينة لإيذاء الجماعة المسلمة ، ومدى التعب والقلق والاضطراب الذي كانوا يحدثونه ؛ كما توحي بضخامة الدور الذي يمكن أن يقوم به المنافقون في كل وقت داخل الصف المسلم ، ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ودسهم اللئيم .

وزيادة في الإيضاح يمضي السياق يضرب الأمثال لهـــذه الطائفة ، ويكشف عن طبيعتها ، وتقلباتها وتأرجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحاً :

« مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون » ..

إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتـــداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك ، كما صنع الذين كفروا . ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه .. لقـــد استوقدوا النار ، فلمـــا أضاء لهم نورها لم ينتفعوا بها وهم طالبوها. عندئذ « ذهب الله بنورهم » الذي طلبوه ثم تركوه:

« وتركهم في ظلمات لا يبصرون » جزاء إعراضهم عن النور !

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون ، لتلقى الأصداء والأضواء ، والانتفاع بالهدى والنور ، فهم قد عطلوا آذانهم فهم « صم » وعطلوا ألسنتهم فهم « بكم » وعطلوا عيونهم فهم « عمي » .. فلا رجعة لهم إلى الحق ، ولا أوبة لهم الى الهدى . ولا هداية لهم الى النور !

ومثل آخر يصور حالهم ويرسم ما في نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة:

« او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير » ..

إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب . فيه تيه وضلال ، وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء .. صيب من السماء هاطل غزير « فيه ظلمات ورعد وبرق » .. « كلما أضاء لهم مشوا فيه » . « وإذا أظلم عليهم قاموا » .. اي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون . وهم مفزعون : « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » ..

إن الحركة التي تغمر المشهد كله : من الصيب الهاطل ، الى الظلمات والرعد والبرق ، الى الحائرين المفزعين فيه ، الى الخطوات المروعة الوجلة ، التي تقف عندما يخيم الظلام .. إن هذه الحركة في المشهد لترسم – عن طريق التأثر الإيحابي – حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها اولئك المنافقون .. بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين . بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة . بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون اليه من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ؛ ويجسم بصورة شعورية . وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس [1] .

* * *

وعندما يتم استعراض الصور الثلاث يرتد السياق في السورة نداء للناس كافة ،

(١) يراجع فصل : « التخييل الحسي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

وأمراً للبشرية جمعاء ، أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة . الصورة النقية الخالصة . الصورة العاملة النافعة . الصورة المهتدية المفلحة .. صورة المتقين :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ..

إنه النداء الى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم . ربهم الذي تفرد بالخلق ، فوجب أن يتفرد بالعبادة.. وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققوه:

« لعلكم تتقون » .. لعلكم تصيرون الى تلك الصورة المختارة من صور البشرية . صورة العابدين لله . المتقين لله . الذين أدوا حق الربوبية الخالقة ، فعبدوا الخالق وحده ؛ رب الحاضرين والغابرين ، وخالق الناس أجمعين ، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ندّ ولا شريك :

« الذي جعل لكم الأرض فراشاً » ..

وهو تعبير يشي باليسر في حياة البشر على الأرض ، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكناً مريحاً وملجأً واقياً كالفراش .. والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه . ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش ، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع . ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة . ولو فقد عنصر واحد من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسيّ في غير البيئة التي تكفل لهم الحياة . ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة !

« والسماء بناء » ..

فيها متانة البناء وتنسيق البناء . والسماء ذات علاقة وثيقة بحياة الناس في الأرض، وبسهولة هذه الحياة. وهي بحرارتها وضوئها وجاذبية أجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وبينها ، تمهد لقيام الحياة على الأرض وتعين عليها . فلا عجب أن نذكر في معرض تذكير الناس بقدرة الخالق ، وفضل الرازق ، واستحقاق المعبود للعبادة من العبيد المخاليق .

« وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » ..

وذكر إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به ، ما يفتأ يتردد في مواضع شتى من القرآن في معرض التذكير بقدرة الله، والتذكير بنعمته كذلك.. والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعاً . فمنه تنشأ الحياة بكل أشكالها ودرجاتها « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .. سواء أنبت الزرع مباشرة حين يختلط بالأرض ، أو كوّن الأنهار والبحيرات العذبة ، أو انساح في طبقات الأرض فتألفت منه المياه الجوفية ، التي تتفجر عيوناً أو تحفر آباراً ، أو تجذب بالآلات الى السطح مرة أخرى .

وقصة الماء في الارض ، ودوره في حياة الناس ، وتوقف الحياة عليه في كل صورها وأشكالها .. كل هذا أمر لا يقبل المماحكة ، فتكفي الإشارة إليه ، والتذكير به، في معرض الدعوة الى عبادة الخالق الرازق الوهاب .

وفي ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الاسلامي : وحدة الخالق لكل الخلائق : « الذي خلقكم والذين من قبلكم » .. ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللانسان : « الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء . وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » .. فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الانسان ، وسماؤه مبنية بنظام ، معينة بالماء الذي تخرج به الثمرات رزقاً للناس .. والفضل في هذا كله للخالق الواحد :

« فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم . وتعلمون أنه جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء . وأنه لم يكن له شريك يساعد ، ولا ند يعارض. فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق !

والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة ، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون . فقد تكون الأنداد في صور أخرى خفية . قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة ، وفي الخوف من غير الله في أي صورة . وفي الاعتقاد بنفع أو ضر في غير الله في أي صورة .. عن ابن عباس قال : « الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي . ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص . وقول

الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ! وقول الرجل : لولا الله وفلان ... هـذا كله به شرك » ... وفي الحديث ان رجلا قال لرسول الله ﷺ : مـا شاء الله وشئت . قال : « أجعلتني لله نداً ؟ » !

هكذا كان سلف هـذه الأمة ينظر الى الشرك الخفي والأنداد مع الله .. فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة ، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة !!!

* * *

ولقد كان اليهود يشككون في صحة رسالة النبي ﷺ وكان المنافقون يرتابون فيها — كما ارتاب المشركون وشككوا في مكة وغيرها — فهنا يتحدى القرآن الجميع . إذ كان الخطاب الى « النـــاس » جميعاً . يتحداهم بتجربة واقعية تفصل في الأمر بلا مماحكة :

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » ..

ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال .. يصف الرسول ﷺ بالعبودية لله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا » .. ولهذا الوصف في هـــذا الموضع دلالات منوعة متكاملة : فهو أولاً تشريف للنبي وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ؛ دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى اليه بشر ويدعى به كذلك . وهو ثانياً تقرير لمعنى العبودية ، في مقام دعوة الناس كافة الى عبادة ربهم وحده ، وإطراح الأنداد كلها من دونه . فها هو ذا النبي في مقام الوحي — وهو أعلى مقـــام — يدعى بالعبودية لله ، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام .

أما التحدي فمنظور فيه الى مطلع السورة .. فهذا الكتاب المنزل مصوغ من تلك الحروف التي في أيديهم ، فإن كانوا يرتابون في تنزيله ، فدونهم فليأتوا بسورة من مثله ؛ وليدعوا من يشهد لهم بهذا — من دون الله — فالله قد شهد لعبده بالصدق في دعواه .

وهذا التحدي ظل قائماً في حياة الرسول ﷺ وبعدها ، ومـا يزال قائماً الى يومنا هـذا . وهو حجة لا سبيل الى المماحكة فيها .. ومـا يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزاً واضحاً قاطعاً . وسيظل كذلك ابداً . سيظل كذلك تصديقاً لقول الله تعالى في الآية التالية :

« فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ..

والتحدي هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة . ومـا من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل الى المماراة فيهـا . ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً ، فلو انهم جاءوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك فالخطاب للناس جميعاً ، ولو أنه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس .. وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية .

على أن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء ؛ وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء ؛ وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية او الاجتماعية التي ينشئها البشر .. لا يخالجه شك في أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات كلها شيء آخر ليس من مادة ما يصنعه البشر . والمراء في هذا لا ينشأ إلا عن جهالة لا تميز ، او غرض يلبس الحق بالباطل ..

ومن ثم كان هذا التهديد المخيف لمن يعجزون عن هـذا التحدي ثم لا يؤمنون بالحق الواضح :

« فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ..

ففيم هذا الجمع بين الناس والحجارة ، في هذه الصورة المفزعة الرعيبة ؟ لقد أعدت هذه النـار للكافرين . الكافرين الذين سبق في أول السورة وصفهم بأنهم « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » .. والذين يتحداهم القرآن هنـا فيعجزون ، ثم لا يستجيبون .. فهم إذن حجارة من الحجارة ! وإن تبدوا في صورة آدمية من الوجهة الشكلية ! فهذا الجمع بين الحجارة من الحجر والحجارة من النـاس هو الأمر المنتظر !

على أن ذكر الحجارة هنا يوحي الى النفس بسمة أخرى في المشهد المفزع .. مشهد النار التي تأكل الأحجار . ومشهد الناس الذين تزحمهم هذه الأحجار .. في النـار ..

* * *

وفي مقابل ذلك المشهد المفزع يعرض المشهد المقـابل . مشهد النعيم الذي ينتظر المؤمنين :

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل . وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » ..

وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها – الى جانب الأزواج المطهرة – تلك الثار المتشابهة ، التي يخيل اليهم أنهم رزقوها من قبل – إما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم او الشكل ، وإما ثمار الجنة التي رزقوها من قبل – فربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة .. وهي ترسم جواً من الدعابة الحلوة ، والرضى السابغ ، والتفكه الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد !

وهذا التشابه في الشكل ، والتنوع في المزية ، سمة واضحةفي صنعة الباريء تعالى، تجعل الوجود أكبر في حقيقته من مظهره . ولنأخذ الانسان وحده نموذجاً كاشفاً لهذه الحقيقة الكبيرة .. الناس كلهم ناس ، من ناحية قاعدة التكوين : رأس وجسم وأطراف . لحم ودم وعظام وأعصاب . عينان وأذنان وفم ولسان . خلايا حية من نوع الخلايا الحية . تركيب متشابه في الشكل والمادة .. ولكن أين غاية المدى في السمات والشيات ؟ ثم أين غاية المدى في الطباع والاستعدادات ؟ إن فارق ما بين انسان وإنسان – على هذا التشابه – ليبلغ أحياناً أبعد مما بين الأرض والسماء !

وهكذا يبدو التنوع في صنعة الباريء هائلا يدير الرؤوس : التنوع في الأنواع والأجناس ، والتنوع في الأشكال والسمات ، والتنوع في المزايا والصفات .. وكله .. كله مرده الى الخلية الواحدة المتشابهة التكوين والتركيب .

فمن ذا الذي لا يعبد الله وحده ، وهذه آثار صنعته ، وآيات قدرته ؟ ومن ذا الذي يجعل لله انداداً ، ويد الاعجاز واضحة الآثار ، فيا تراه الأبصار ، وفيا لا تدركه الأبصار ؟

* * *

بعد ذلك يجيء الحديث عن الأمثال التي يضربها الله في القرآن :

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها. فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله

من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض .. أولئك هم الخاسرون » .

وهذه الآيات تشي بأن المنافقين الذين ضرب الله لهم مثل الذي استوقد ناراً ومثل الصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق — وربما كان اليهود كذلك والمشركون — قد اتخذوا من ورود هذه الأمثال في هـــذه المناسبة . ومن وجود أمثال اخرى في القرآن المكي الذي سبق نزوله وكان يتلى في المدينـــة ، كالذي ضربــه الله مثلاً للذين كفروا بربهم « كمثل العنكبوت اتخذت بيتــاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .. وكالذي ضربه الله مثلاً لعجز آلهتهم المدعـــاة عن خلق الذباب : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يلسبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » ..

تقول : إن هذه الآيات تشي بأن المنافقين — وربما كان اليهود والمشركون — قـــد وجدوا في هذه المناسبة منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن ، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله ، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه ! .. وكان هذا طرفاً من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة ، كما كان يقوم بهـــا المشركون في مكة .

فجاءت هذه الآيات دفعاً لهـــذا الدس ، وبياناً لحكمة الله في ضرب الأمثال ، وتحذيراً لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها وتطميناً للمؤمنين ان ستزيدهم إيماناً .

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها » ..

فالله رب الصغير والكبير ، وخـــالق البعوضة والفيل . والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل . إنها معجزة الحياة . معجزة السر المغلق الذي لا يعلمــــه إلا الله .. على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل ، انما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير . وليس في ضرب الأمثال ما يعاب ومـــا من شأنه الاستحياء من ذكره . والله — جلت حكمته — يريد بها اختبار القلوب ، وامتحان النفوس :

« فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » ..

ذلك أن ايمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله ؛ وبما يعرفون من حكمته . وقد وهبهم الايمـــان نوراً في قلوبهم ، وحساسية في أرواحهم ، وتفتحاً

في مداركهم ، واتصالاً بالحكمة الإلهية في كل امر وفي كل قول يجيئهم من عند الله .

« وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » ..

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته ، المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره . ثم هو سؤال من لا يرجو الله وقاراً ، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب . يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار ، او في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله !

هنا يجيئهم الجواب في صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتدبير :

« يضل به كثيراً ، ويهدي به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين » ..

والله — سبحانه — يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضي في طريقها ، ويتلقاها عباده ، كل وفق طبيعته واستعداده ، وكل حسب طريقه ومنهجه الذي اتخذه لنفسه. والابتلاء واحد .. ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق .. الشدة تسلط على شتى النفوس ، فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتزيده الشدة التجاء الى الله وتضرعاً وخشية. وأما الفاسق او المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعداً ، وتخرجه من الصف إخراجاً . والرخاء يسلط على شتى النفوس ، فأما المؤمن التقي فيزيده الرخاء يقظة وحساسية وشكراً . وأما الفاسق او المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ويضله الابتلاء .. وهكذا المثل الذي يضربه الله للناس .. « يضل به كثيراً » .. ممن لا يحسنون استقبال ما يجيئهم من الله ، « ويهدي به كثيراً » ممن يدركون حكمة الله . « وما يضل به إلا الفاسقين » .. الذين فسقت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق ، فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه !

ويفصل السياق صفة الفاسقين هؤلاء ، كما فصل في أول السورة صفة المتقين ؛ فالمجال لا يزال — في السورة — هو مجال الحديث عن تلك الطوائف ، التي تتمثل فيها البشرية في شتى العصور :

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض . اولئك هم الخاسرون » ..

فأي عهد من عهود الله هو الذي ينقضون ؟ وأي أمر مما امر الله به ان يوصل هو الذي يقطعون ؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون ؟

لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال . لأن المجال مجال تشخيص طبيعة ، وتصوير

نموذج ، لا مجال تسجيل حادثة ، او تفصيل واقعة .. إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها . فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض ؛ وكل ما أمر الله بـه أن يوصل فهو بينهم مقطوع ؛ وكل فساد في الأرض فهو منهم مصنوع .. إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة ، وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ولا تستمسك بعروة ولا تتورع عن فساد . إنهم كالثمرة الفجـة التي انفصلت من شجرة الحياة ، فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة .. ومن ثم يكون ضلالهم بالمثل الذي يهـدي المؤمنين ؛ وتجيء غوايتهم بالسبب الذي يهتدي به المتقون .

وننظر في الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر الذي كانت الدعوة تواجهه في المدينة في صورة اليهود والمنافقين والمشركين ؛ والذي ظلت تواجهه وما تزال تواجهه اليوم في الأرض . مع اختلاف سطحي في الأسماء والعنوانات !

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » ..

وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة : إنـه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي .. أن يعرف خالقه ، وأن يتجه اليه بالعبادة . ومـا تزال في الفطرة هـذه الجوعة للاعتقاد بالله . ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أنداداً وشركاء .. وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم —كما سيجيء— : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يحكموا في حيـاتهم منهجه وشريعته .. وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسقون . واذا نُقض عهد الله من بعد ميثاقه ، فكل عهد دون عهد الله منقوض . فالذي يجرؤ على عهد الله لا يحترم بعـده عهداً من العهود .

« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » .

والله أمر بصلات كثيرة .. أمر بصلة الرحم والقربى . وأمر بصلة الانسانيـة الكبرى . وأمر قبل هذا بصلة العقيدة والأخوة الايمانية، التي لا تقوم صلة ولا وشيجة إلا معها..واذا قطع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت العرى، وانحلت الروابط، ووقع الفساد في الأرض ، وعمت الفوضى .

« ويفسدون في الأرض » ..

والفساد في الأرض ألوان شتى ، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله ، ونقض عهد الله ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل . ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها . هذا مفرق الطريق الذي ينتهي الى الفساد حتماً ، فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض ، ومنهج الله بعيد عن تصريفها ، وشريعة الله مقصاة عن حياتها . واذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال ، وللحياة والمعاش ؛ وللأرض كلها وما عليها من ناس وأشياء .

إنه الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله .. ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدي به عباده المؤمنين .

* * *

وعند هذا البيان الكاشف لآثار الكفر والفسوق في الأرض كلها يتوجه الى الناس باستنكار كفرهم بالله الحي المميت الخالق الرازق المدبر العليم :

« كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون ؟ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ؛ ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » ..

والكفر بالله في مواجهة هذه الدلائل والآلاء كفر قبيح بشع ، مجرد من كل حجة او سند.. والقرآن يواجه البشر بما لا بد لهم من مواجهته ، والاعتراف به ، والتسليم بمقتضياته . يواجههم بموكب حياتهم وأطوار وجودهم .. لقد كانوا أمواتاً فأحياهم . كانوا في حالة موت فنقلهم منها الى حالة حياة ولا مفر من مواجهة هذه الحقيقة التي لا تفسير لها إلا بالقدرة الخالقة . إنهم أحياء ، فيهم حياة فمن الذي أنشأ لهم هذه الحياة ؟ من الذي أوجد هذه الظاهرة الجديدة الزائدة على ما في الأرض من جماد ميت ؟ إن طبيعة الحياة شيء آخر غير طبيعة الموت المحيط بها في الجمادات . فمن أين جاءت ؟ إنه لا جدوى من الهروب من مواجهة هذا السؤال الذي يلح على العقل والنفس ؛ ولا سبيل كذلك لتعليل مجيئها بغير قدرة خالقة ذات طبيعة أخرى غير طبيعة المخلوقات . من أين جاءت هذه الحياة التي تسلك في الأرض سلوكاً آخر متميزاً عن كل ما عداها من الموات ؟.. لقد جاءت من عند الله .. هذا هو اقرب جواب .. وإلا فليقل من لا يريد التسليم : أين هو الجواب !

وهذه الحقيقة هي التي يواجه بها السياق الناس في هذا المقام :

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ؟ » ..

كنتم أمواتاً من هذا الموات الشائع من حولكم في الأرض ؛ فأنشأ فيكم الحياة « فأحياكم » .. فكيف يكفر بالله من تلقى منه الحياة ؟

« ثم يميتكم » ..

ولعل هذه لا تلقى مراء ولا جدلاً ، فهي الحقيقة التي تواجه الأحياء في كل لحظة ، وتفرض نفسها عليهم فرضاً ، ولا تقبل المراء فيها ولا الجدال .

« ثم يحييكم » ..

وهذه كانوا يمارون فيها ويجادلون ؛ كما يماري فيها اليوم ويجادل بعض المطموسين ، المنتكسين الى تلك الجاهلية الأولى قبل قرون كثيرة . وهي ، حين يتدبرون النشأة الأولى ، لا تدعو الى العجب ، ولا تدعو الى التكذيب .

« ثم إليه ترجعون » ..

كما بدأكم تعودون ، وكما ذرأكم في الأرض تحشرون ، وكما انطلقتم بإرادته من عالم الموت الى عالم الحياة ، ترجعون إليه ليمضي فيكم حكمه ، ويقضي فيكم قضاءه ..

وهكذا في آية واحدة قصيرة يُفتح سجل الحياة كلها ويُطوى ، وتُعرض في ومضة صورة البشرية في قبضة البارىء : ينشرها من همود الموت أول مرة، ثم يقبضها بيد الموت في الأولى ، ثم يحييها كرة أخرى ، وإليه مرجعها في الآخرة ، كما كانت منه نشأتها في الاولى .. وفي هذا الاستعراض السريع يرتسم ظل القدرة القادرة، ويلقى في الحس إيحاءاته المؤثرة العميقة .

ثم يعقب السياق بومضة أخرى مكملة للومضة الاولى :

« هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ؛ ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات ؛ وهو بكل شيء عليم » ..

ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا من الكلام عن خلق الارض والسماء ، يتحدثون عن القبلية والبعدية . ويتحدثون عن الاستواء والتسوية .. وينسون أن « قبل وبعد » اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس الى الله تعالى ؛ وينسون أن الإستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان الى التصور البشري المحدود صورة غير المحدود .. ولا يزيدان .. وما كان الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات

القرآنية ، إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى ، عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية ، وللعقلية الاسلامية الناصعة . وما كان لنا نحن اليوم أن نقع في هذه الآفة ، فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام !!

فلنخلص اذن الى ما وراء هذه التعبيرات من حقائق موحية عن خلق ما في الارض جميعاً للإنسان . ودلالة هذه الحقيقة على غاية الوجود الانساني ، وعلى دوره العظيم في الارض ، وعلى قيمته في ميزان الله ، ومـا وراء هذا كله من تقرير قيمة الانسان في التصور الاسلامي ؛ وفي نظام المجتمع الاسلامي ..

« هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً » ..

إن كلمة « لكم » هنا ذات مدلول عميق وذات إيحاء كذلك عميق إنهـا قاطعة في أن الله خلق هذا الانسان لأمر عظيم . خلقه ليكون مستخلفاً في الارض ، مالكاً لما فيها ، فاعلا مؤثراً فيها . إنه الكائن الأعلى في هذا الملك العريض ؛ والسيد الأول في هذا الميراث الواسع . ودوره في الارض اذن وفي أحداثها وتطوراتها هو الدور الاول ؛ إنه سيد الارض وسيد الآلة ! إنه ليس عبداً للآلة كما هو في العالم المادي اليوم. وليس تابعاً للتطورات التي تحدثها الآلة في علاقـات البشر وأوضاعهم كما يدعي أنصار المادية المطموسون ، الذين يحقرون دور الانسان ووضعه ، فيجعلونه تابعـاً للآلة الصماء وهو السيد الكريم ! وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الانسان ، ولا أن تستذله أو تخضعه أو تستعلي عليه ؛ وكل هدف ينطوي على تصغير قيمة الانسان، مهما يحقق من مزايا مادية ، هو هدف مخالف لغاية الوجود الانساني . فكرامة الانسان أولاً ، واستعلاء الانسان أولاً ، ثم تجيء القيم المادية تابعة مسخرة .

والنعمة التي يمتن الله بها على الناس هنا — وهو يستنكر كفرهم به — ليست مجرد الإنعام عليهم بما في الارض جميعاً ، ولكنها — الى ذلك — سيادتهم على مـا في الارض جميعـاً ، ومنحهم قيمة أعلى من قيم الماديات التي تحويها الارض جميعـاً . هي نعمة الاستخلاف والتكريم فوق نعمة الملك والانتفاع العظيم .

« ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات » ..

ولا مجال للخوض في معنى الاستواء إلا بأنه رمز السيطرة، والقصد بإرادة الخلق والتكوين . كذلك لا مجال للخوض في معنى السماوات السبع المقصودة هنـا وتحديد أشكالها وأبعادها . . اكتفاء بالقصد الكلي من هذا النص ، وهو التسوية للكون أرضه

وسمائه في معرض استنكار كفر الناس بالخـالق المهيمن المسيطر على الكون ، الذي سخر لهم الأرض بما فيها ، ونسق السماوات بما يجعل الحياة على الأرض ممكنة مريحة .

« وهو بكل شيء عليم » ..

بما أنه الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء . وشمول العلم في هذا المقام كشمول التدبير حافز من حوافز الإيمـان بالخالق الواحد ، والتوجه بالعبادة للمدبر الواحد ، وإفراد الرازق المنعم بالعبادة اعترافاً بالجميل .

وهكذا تنتهي الجولة الأولى في السورة . وكلها تركيز على الإيمـان ، والدعوة الى اختيار موكب المؤمنين المتقين ..

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ .

« وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ . فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ ؟

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : ٱسْجُدُوا لِآدَمَ . فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ٣٤ .

« وَقُلْنَا : يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ؛ وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا ، فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا : ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٣٦ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ .

« قُلْنَا : ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى : فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ٣٩ .

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات . وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة ، والحلقة التي تعرض منها ، والصورة التي تأتي عليها ، والطريقة التي تؤدى بها . تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه . وبذلك تؤدي دورها الموضوعي ، وتحقق غايتها النفسية ، وتلقي إيقاعها المطلوب .

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني ، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى . ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة ، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة ، من ناحية القدر الذي يساق ، وطريقة الأداء في السياق . وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ، ينفي حقيقة التكرار .

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها ، يقصد به الى مجرد الفن – بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع – ولكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن ، وهو مستقيم الفطرة ، مفتوح البصيرة ، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع ، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء . والقرآن كتاب دعوة ، ودستور نظام ، ومنهج حياة ، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ . وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار ، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفني الصادق ، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن يعتمد على إبداع العرض ، وقوة الحق ، وجمال الأداء [1] .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

وقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الايمان في طريقه الممتد الواصل الطويل . ويعرض قصة الدعوة الى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل ؛ كما يعرض طبيعة الايمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر ، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم .. وتتبع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية ، ويشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز — عنصر الايمان — وأصالته في الوجود . كذلك يكشف عن حقيقة التصور الايماني ويميزه في الحس من سائر التصورات الدخيلة .. ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم .

فلننظر الآن في قصة آدم — كما جاءت هنا — في ضوء هذه الإيضاحات ..

إن السياق — فيما سبق — يستعرض موكب الحياة ، بل موكب الوجود كله . ثم يتحدث عن الأرض — في معرض آلاء الله على الناس — فيقرر أن الله خلق كل ما فيها لهم .. فهنا في هذا الجو تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض ، ومنحه مقاليدها ، على عهد من الله وشرط ، وإعطاؤه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة ، كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بني اسرائيل في الأرض بعهد من الله ؛ ثم عزلهم عن هذه الخلافة وتسليم مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله (كما سيجيء) فتتسق القصة مع الجو الذي تساق فيه كل الاتساق .

فلنعش لحظات مع قصة البشرية الأولى وما وراءها من إيحاءات أصيلة :

* * *

ها نحن اولاء — بعين البصيرة في ومضات الاستشراف — في ساحة الملأ الأعلى ؛ وها نحن اولاء نسمع ونرى قصة البشرية الأولى :

« وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الارض خليفة » ..

وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الارض ، وتطلق فيها يده ، وتكل اليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ؛ وكشف ما في هذه الارض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله — بإذن الله — في المهمة الضخمة التي وكلها الله اليه .

وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات

المذخوره كفاء ما في هذه الارض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ؛ ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية .

وإذن فهنالك وحدة او تناسق بين النواميس التي تحكم الارض – وتحكم الكون كله – والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ؛ وكي لا تتحطم طاقة الانسان على صخرة الكون الضخمة !

وإذن فهي منزلة عظيمة ، منزلة هذا الانسان ، في نظام الوجود على هذه الارض الفسيحة . وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم .

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوي الجليل : « إني جاعل في الارض خليفة » .. حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ما تم في الارض على يد هذا الكائن المستخلف في هذا الملك العريض !

« قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ » ..

ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، او من تجارب سابقه في الارض ، او من إلهام البصيرة ، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، او من مقتضيات حياته على الاوض ؛ وما يجعلهم يعرفون او يتوقعون انه سيفسد في الارض ، وأنه سيسفك الدماء .. ثم هم – بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق ، وإلا السلام الشامل – يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق .. وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته !

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، في بناء هذه الارض وعمارتها ، وفي تنمية الحياة وتنويعها ، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها ، على يد خليفة الله في أرضه . هذا الذي قد يفسد احياناً ، وقد يسفك الدماء أحياناً ، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير اكبر وأشمل . خير النمو الدائم ، والرقي الدائم . خير الحركة الهادمة البانية . خير المحاولة التي لا تكف ، والتطلع الذي لا يقف ، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير .

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء ، والخبير بمصائر الأمور :

« قال : إني أعلم ما لا تعلمون » ..

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . إنك أنت العليم الحكيم. قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » ..

ها نحن أولاء – بعين البصيرة في ومضات الاستشراف – نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى .. ها نحن اولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري ، وهو يسلمه مقاليد الخلافة . سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات . سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها – وهي ألفاظ منطوقة – رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة . وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الانسان على الأرض . ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى ، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ، والمشقة في التفاهم والتعامل ، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه .. الشأن شأن نخلة فلا سبيل الى التفاهم عليه إلا باستحضار جسم النخلة ! الشأن شأن جبل . فلا سبيل الى التفاهم عليه إلا بالذهاب الى الجبل ! الشأن شأن فرد من الناس فلا سبيل الى التفاهم عليه إلا بتحضير هذا الفرد من الناس.. إنها مشقة هائلة لا نتصور معها حياة ! وإن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات .

فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية ، لأنها لا ضرورة لها في وظيفتهم . ومن ثم لم توهب لهم . فلما علم الله آدم هذا السر ، وعرض عليهم ما عرض لم يعرفوا الأسماء . لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص .. وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم ، والاعتراف بعجزهم ، والإقرار بحدود علمهم ، وهو ما علمهم.. وعرف آدم.. ثم كان هذا التعقيب الذي يردهم الى إدراك حكمة العليم الحكيم:

« قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ » ..

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا » ..

إنه التكريم في أعلى صوره ، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة . لقد وهب سر المعرفة ، كما وهب

سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق .. إن ازدواج طبيعته ، وقدرتــــه على تحكيم إرادته في شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية الى الله بمحاولته الخاصة .. إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوي الجليل ..

« إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » ..

وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة : عصيان الجليل سبحانه ! والاستكبار عــــن معرفة الفضل لأهله . والعزة بالإثم والاستغلاق عن الفهم .

ويوحي السياق أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ، إنمـا كان معهم . فلو كان منهم ما عصى. وصفتهم الأولى أنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ».. والاستثناء هنا لا يدل على أنه من جنسهم ، فكونه معهم يجيز هــــذا الاستثناء ، كما تقول : جاء بنو فلان إلا أحمد . وليس منهم إنما هو عشيرهم ! وإبليس من الجن بنص القرآن ، والله خلق الجان من مارج من نار . وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة .

والآن . لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة. المعركة بين خليقة الشر في إبليس ، وخليفة الله في الأرض . المعركة الخالدة في ضمير الإنسان . المعركة التي ينتصر فيهـا الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته ويبعد عن ربه :

« وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » ..

لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة .. إلا شجرة .. شجرة واحدة ، ربمـا كانت ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض . فبغير محظور لا تنبت الارادة ، ولا يتميز الانسان المريد من الحيوان المسوق ، ولا يمتحن صبر الانسان على الوفـاء بالعهد والتقيد بالشرط. فالارادة هي مفرق الطريق . والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة ، ولو بدوا في شكل الآدميين !

« فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه » ..

ويا للتعبير المصور : « أزلهما » .. إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنهـا . وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى ! عندئذ تمت التجربة : نسي آدم عهده ، وضعف أمام الغواية . وعندئذ حقت كلمة

الله . وصرح قضاؤه :

« وقلنـــا : اهبطوا .. بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتـــاع الى حين » ..

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدر لهـا . بين الشيطان والانسان . الى آخر الزمان .

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب في فطرته ، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائماً عندما يثوب اليها ، ويلوذ بها .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » ..

وتمت كلمة الله الاخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته . عهد الاستخلاف في هذه الأرض ، وشرط الفلاح فيها او البوار .

« قلنا : اهبطوا منهـا جميعاً . فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النـــار هم فيها خالدون » ..

وانتقلت المعركة الخالدة الى ميدانها الأصيل ، وانطلقت من عقالها مـا تهدأ لحظة وما تفتر . وعرف الانسان في فجر البشرية كيف ينتصر اذا شاء الانتصار ، وكيف ينكسر اذا اختار لنفسه الخسارة ...

* * *

وبعد فلا بد من عودة الى مطالع القصة . قصة البشرية الأولى .

لقد قـــال الله تعالى للملائكة : « اني جاعل في الأرض خليفة » .. وإذن فآدم مخلوق لهـذه الارض منذ اللحظة الاولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط الى الارض ، وهو مخلوق لهذه الارض منذ اللحظة الاولى ؟

لعلني ألمح أن هـذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً . كانت إيقاظـــاً للقوى المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له على تلقي الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك الى الملاذ الأمين .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهـــد بالمعصية ، والصحوة من بعـد السكرة ، والندم وطلب المغفرة .. إنهـــا هي هي تجربة البشرية

المتجددة المكرورة !

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط الى مقر خلافته ، مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً ، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً ..

وبعد .. مرة اخرى .. فأين كان هذا الذي كان ؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟.. كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟...

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ؛ وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والاحاطة به ، بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الارض ، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب . وبقدر ما سخر الله للانسان من النواميس الكونية وعرّفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدوى له في معرفته. وما يزال الانسان مثلاً على الرغم من كل ما فتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلاً مطلقاً ، ولا يملك بأي أداة من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة ، وهل النفس الذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه ؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر ، لأنه لا يدخل في مقتضيات الخلافة ، بل ربما كان معوّقاً لها لو كشف للانسان عنه ! وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الانسان ، في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

ومن ثم لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه ، لأنه لا يملك الوسيلة للوصول الى شيء من أمره . وكل جهد يبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع ، ذاهب سدى ، بلا ثمرة ولا جدوى .

واذا كان العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطلاع على هذا الغيب المحجوب ؛ فليس سبيله اذن أن يتبجح فينكر . فالإنكار حكم يحتاج الى المعرفة . والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل ، وليست في طوق وسائله ، ولا هي ضرورية له في وظيفته !

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة.ولكن أضر منه وأخطر، التنكر للمجهول كله وإنكاره ، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به .. إنها تكون نكسة الى عالم الحيوان الذي يعيش في المحسوس وحده، ولا ينفذ من أسواره الى الوجود الطليق .

فلندع هذا الغيب اذن لصاحبه ، وحسبنا ما يقص لنا عنه ، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا ، ويصلح سرائرنا ومعاشنا . ولنأخذ من القصة ما تشير إليه من حقائق كونية وانسانية ، ومن تصور للوجود وارتباطاته ، ومن إيحاء بطبيعة الانسان وقيمه وموازينه .. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى .

وفي اختصار يناسب ظلال القرآن سنحاول أن نمر بهـذه الايحاءات والتصورات والحقائق مروراً مجملاً سريعاً .

إن أبرز إيحاءات قصة آدم – كما وردت في هذا الموضع – هَو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الاسلامي للانسان ولدوره في الارض ، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها . ثم لحقيقة ارتباطه لعهد الله ، وحقيقة هـذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه ..

وتتبدى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الاسلامي للانسان في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم ، أنه مخلوق ليكون خليفة في الارض ؛ كما تتبدى في أمر الملائكة بالسجود له . وفي طرد إبليس الذي استكبر وأبى ، وفي رعـاية الله له أولاً وأخيراً ..

ومن هذه النظرة للانسان تنبثق جمـلة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء .

وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الانسان سيد هـذه الارض ، ومن أجله خلق كل شيء فيها – كما تقدم ذلك نصاً – فهو اذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي ، ومن كل قيمة مادية في هذه الارض جميعاً . ولا يجوز اذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي .. لا يجوز ان يعتدى عـلى أي مقوم من مقومات انسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أية قيمةمن قيمه لقاء تحقيق أي كسبمادي، أو انتاج أي شيء مادي ، أو تكثير أي عنصر مادي .. فهذه الماديات كلها مخلوقة – أو مصنوعة – من أجله . من أجل تحقيق انسانيته . من اجـل تقرير وجوده الانساني . فلا يجوز اذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الانسانية ، أو نقص مقوم من مقومات كرامته .

والاعتبار الثاني هو ان دور الانسان في الارض هو الدور الاول . فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها ؛ وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتهـا . وليست

وسائل الأنتاج ، ولا توزيع الانتاج ، هي التي تقود الانسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية ؛ التي تحقر من دور الانسان وتصغر ، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر !

إن النظرة القرآنية تجعل هذا الانسان بخلافته في الارض ، عاملاً مهماً في نظام الكون ، ملحوظاً في هذا النظام . فخلافته في الارض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار ، ومع الشموس والكواكب .. وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الارض، وإمكان قيام هذا الانسان بالخلافة.. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية، ولا تسمح له أن يتعداه ؟!

وما من شك أن كلاً من نظرة الاسلام هذه ونظرة المادية للانسان تؤثر في طبيعة النظام الذي تقيمه هذه وتلك للانسان ؛ وطبيعة احترام المقومات الانسانية أو إهدارها ؛ وطبيعة تكريم هذا الانسان أو تحقيره .. وليس ما نراه في العالم المادي من إهدار كل حريات الانسان وحرماته ومقوماته في سبيل توفير الانتاج المادي وتكثيره ، إلا أثراً من آثار تلك النظرة الى حقيقة الانسان ، وحقيقة دوره في هذه الارض !

كذلك ينشأ عن نظرة الاسلام الرفيعة الى حقيقة الانسان ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في وزنه وتقديره ، وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية، وتكبير قيم الايمان والصلاح والاخلاص في حياته . فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون...» وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادية — هذا مع أن من مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية ، ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطغى على تلك القيم العليا — ولهذا وزنه في توجيه القلب البشرى الى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته . بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من استهزاء بكل القيم الروحية ، وإهدار لكل القيم الأدبية . في سبيل الاهتمام المجرد بالانتاج والسلع ومطالب البطون كالحيوان ! (١)

وفي التصور الاسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الانسان فهي مناط العهد مع الله،

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : الانسان بين المادية والاسلام لمحمد قطب .

وهي مناط التكليف والجزاء .. إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم ارادته ، وعدم الخضوع لشهواته ، والاستعلاء على الغواية التي توجه اليه . بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه ، بتغليب الشهوة على الارادة، والغواية على الهداية ، ونسيان العهد الذي يرفعه الى مولاه. وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه ، يضاف الى عناصر التكريم الأخرى . كما أن فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة ، والرفعة والهبوط ، ومقام الانسان المريد ودرك الحيوان المسوق !

وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الانسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة . إنها بين عهد الله وغواية الشيطان . بين الايمان والكفر . بين الحق والباطل . بين الهدى والضلال .. والانسان هو نفسه ميدان المعركة . وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها. وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة؛ وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان ؛ وأنه هو صاحب الغنيمة او السلب في هذا الميدان !

وأخيراً تجيء فكرة الاسلام عن الخطيئة والتوبة .. إن الخطيئة فردية والتوبة فردية . في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض .. ليست هنالك خطيئة مفروضة على الانسان قبل مولده – كما تقوله نظرية الكنيسة – وليس هنالك تكفير لاهوتي ، كالذي تقول الكنيسة إن عيسى – عليه السلام – (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه ، تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم!.. كلا! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة . وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية ، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة .. تصور مريح صريح . يحمل كل انسان وزره ، ويوحي الى كل انسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط .. « إن الله تواب رحيم »..

هذا طرف من إيحاءات قصة آدم – في هذا الموضع – نكتفي به في ظلال القرآن. وهو وحده ثروة من الحقائق والتصورات القويمة؛ وثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة؛ وثروة من الأسس التي يقوم عليها تصور اجتماعي وأوضاع اجتماعية ، يحكمها الخلق والخير والفضيلة. ومن هذا الطرف نستطيع أن ندرك أهمية القصص القرآني في تركيز قواعد التصور الاسلامي ، وإيضاح القيم التي يرتكز عليها . وهي القيم التي تليق بعالم صادر عن الله ، متجه الى الله ، صائر الى الله في نهاية المطاف .. عقد الاستخلاف فيه

قائم على تلقي الهدي من الله ، والتقيد بمنهجه في الحياة . ومفرق الطريق فيه أن يسمع الانسان ويطيع لما يتلقاه من الله ، أو ان يسمع الانسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان . وليس هنالك طريق ثالث .. إما الله وإما الشيطان . إما الهدى وإما الضلال . إما الحق وإما الباطل . إما الفلاح وإما الخسران .. وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها القرآن كله ، بوصفها الحقيقة الأولى ، التي تقوم عليها سائر التصورات ، وسائر الأوضاع في عالم الانسان ..

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ [٤٠] وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ، وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ [٤١] وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٤٢] وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ [٤٣] .

« أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ [٤٤] وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ : وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ [٤٥] ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [٤٦] .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ [٤٧] وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ [٤٨] .

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٤٩] . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [٥٠] .

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ، فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤ .

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧ .

« وَإِذْ قُلْنَا : ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ، وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً ، وَقُولُوا : حِطَّةٌ ، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٥٩ .

« وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا : ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ، فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً . قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ . كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللَّهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٦٠ .

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ

يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا. قَالَ: أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ ٱهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ، وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ، وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[٦١].

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا، وَٱلَّذِينَ هَادُوا، وَٱلنَّصَارَىٰ، وَٱلصَّابِئِينَ.. مَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً.. فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٦٢].

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[٦٣] ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ، فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ[٦٤].

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[٦٥] فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ[٦٦].

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ: إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً. قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً؟ قَالَ: أَعُوذُ بِٱللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ[٦٧] قَالُوا: ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ، عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ، فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ[٦٨] قَالُوا: ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا

تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ ٦٩ قَالُوا: ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا. قَالُوا: ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ. فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ٧١.

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً، فَٱدَّارَأْتُمْ فِيهَا، وَٱللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللهُ ٱلْمَوْتَىٰ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ، فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً. وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ، وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٧٤ » ..

ابتداء من هـذا المقطع في السورة يواجه السياق بني إسرائيل، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة نكرة؛ وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة؛ وكادوا لها كيداً موصولاً، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة؛ وتبين لهم أنـه في طريقـه الى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، مـذ وحد الأوس والخزرج، وسد الثغرات التي كانت تنفذ منها يهود، وشرع لهم منهجاً مستقلاً، يقوم على أساس الكتاب الجديد .. هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة، بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها؛ أما حقيقتها فباقية، وأمـا طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة الى جهة ومن قرن الى قرن، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين!

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد ؛ مذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومه ؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول ، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم ؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين .

وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل؛ بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم ؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام ، والانضمام الى موكب الإيمان بالدين الجديد .

* * *

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل الى بني إسرائيل ، يذكرهم بنعمته — تعالى— عليهم ويدعوهم الى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعده معهم ، والى تقواه وخشيته ؛ يمهد بها لدعوتهم الى الإيمان بما أنزله مصدقاً لما معهم . ويندد بموقفهم منه ، وكفرهم به أول من يكفر ! كما يندد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس — وعلى المسلمين خاصة — ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي ، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد . ويأمرهم أن يدخلوا في الصف . فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين ، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة. وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين الى الإيمان ، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين !

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل . مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى — عليه السلام — وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال ، متحدة الجبلة . كما هم في حقيقة الأمر وفق ما بدا من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور !

ويعاود تخويفهم باليوم الذي يُخاف ، حيث لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها فدية ، ولا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب.

ويستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم من فرعون وملئه كأنه حاضر . ومشهد النعم الأخرى التي ظلت تتوالى عليهم من تظليل الغمام الى المن والسلوى الى تفجير الصخر بالماء .. ثم يذكرهم بما كان منهم بعد ذلك من انحرافات متوالية ، ما يكاد يردهم عن واحدة منها حتى يعودوا الى أخرى ، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في

خطيئة ، وما يكادون ينجون من عثرة حتى يقعوا في حفرة .. ونفوسهم هي هي في التوائها وعنادها وإصرارها على الالتواء والعناد ، كما أنها هي هي في ضعفها عن حمل التكاليف ، ونكولها عن الأمانة ، ونكثها للعهد ، ونقضها للمواثيق مع ربها ومع نبيها .. حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق ، وتكفر بآيات ربها ، وتعبد العجل وتجدف في حق الله فترفض الايمان لنبيها حتى ترى الله جهرة ؛ وتخالف عما أوصاها به الله وهي تدخل القرية فتفعل وتقول غير ما أمرت به ؛ وتعتدي في السبت ، وتنسى ميثاق الطور ، وتماحل وتجادل في ذبح البقرة التي أمر الله بذبحها لحكمة خاصة ...

وهذا كله مع الادعاء العريض بأنها هي وحدها المهتدية ؛ وأن الله لا يرضى إلا عنها ، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأمم ضالة عداها ! مما يبطله القرآن في هذه الجولة ، ويقرر أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من جميع الملل ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

* * *

هذه الحملة – سواء ما ورد منها في هذا الدرس وما يلي منها في سياق السورة – كانت ضرورية أولاً وقبل كل شيء لتحطيم دعاوى يهود ، وكشف كيدها ، وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها في الدس للاسلام والمسلمين . كما كانت ضرورية لتفتيح عيون المسلمين وقلوبهم لهذه الدسائس والمكايد التي توجه الى مجتمعهم الجديد ، والى الأصول التي يقوم عليها ؛ كما توجه الى وحدة الصف المسلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه .

ومن جانب آخر كانت ضرورية لتحذير المسلمين من مزالق الطريق التي عثرت فيها أقدام الأمة المستخلفة قبلهم ، فحرمت مقام الخلافة ، وسلبت شرف القيام على أمانة الله في الارض ، ومنهجه لقيادة البشر . وقد تخللت هذه الحملة توجيهات ظاهرة وخفية للمسلمين لتحذيرهم من تلك المزالق كما سيجيء في الشطر الثاني منها .

وما كان أحوج الجماعة المسلمة في المدينة الى هذه وتلك . وما أحوج الأمة المسلمة في كل وقت الى تملي هذه التوجيهات ، والى دراسة هذا القرآن بالعين المفتوحة والحس البصير ، لتتلقى منه تعليمات القيادة الإلهية العلوية في معاركها التي تخوضها مع أعدائها التقليديين ؛ ولتعرف منها كيف ترد على الكيد العميق الخبيث الذي يوجهونه اليها دائبين ، بأخفى الوسائل ، وأمكر الطرق . وما يملك قلب لم يهتد بنور الايمان ، ولم

يتلقى التوجيه من تلك القيادة المطلعة على السر والعلن والباطن والظاهر ، أن يدرك المسالك والدروب الخبيثة التي يتدسس فيها ذلك الكيد الخبيث المريب ...

* * *

ثم نلحظ من جانب التناسق الفني والنفسي في الأداء القرآني ، أن بدء هذه الجولة يلتحم بختام قصة آدم ، وبالإيحاءات التي أشرنا اليها هناك ، وهذا جانب من التكامل في السياق القرآني بين القصص والوسط الذي تعرض فيه [1] :

لقد مضى السياق قبل ذلك بتقرير أن الله خلق ما في الارض جميعاً للانسان . ثم بقصة استخلاف آدم في الارض بعهد الله الصريح الدقيق ؛ وتكريمه على الملائكة ؛ والوصية والنسيان ، والندم والتوبة ، والهداية والمغفرة ، وتزويده بالتجربة الاولى في الصراع الطويل في الارض ، بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة في إبليس ، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة في الانسان المعتصم بالايمان .

مضى السياق بهذا كله في السورة . ثم أعقبه بهذه الجولة مع بني اسرائيل ، فذكر عهد الله معهم ونكثهم له ؛ ونعمته عليهم وجحودهم بها ، ورتب على هذا حرمانهم من الخلافة ، وكتب عليهم الذلة ، وحذر المؤمنين كيدهم كما حذرهم مزالقهم . فكانت هناك صلة ظاهرة بين قصة استخلاف آدم وقصة استخلاف بني اسرائيل ، واتساق في السياق واضح وفي الأداء .

والقرآن لا يعرض هنا قصة بني اسرائيل ، إنما يشير الى مواقف منها ومشاهد باختصار او بتطويل مناسب. وقد وردت القصة في السور المكية التي نزلت قبل هذا، ولكنها هناك كانت تذكر – مع غيرها – لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الايمان الواصل منذ أول الخليقة ، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة. فأما هنا فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها ، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود .. وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض؛ وإن كانت الحقائق التي عرضت هنا وهناك عن انحراف بني اسرائيل ومعصيتهم واحدة (كما سيجيء عند استعراض السور المكية السابقة في ترتيب النزول) .

---

(١) يراجع فصل : القصة في القرآن وفي كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

ومن مراجعة المواضع التي وردت فيها قصة بني اسرائيل هنا وهناك يتبين أنها متفقة مع السياق الذي عرضت فيه ، متممة لأهدافه وتوجيهاته .. وهي هنا متسقة مع السياق قبلها .. سياق تكريم الانسان ، والعهد اليه والنسيان .. متضمنة اشارات الى وحدة الانسانية ، ووحدة دين الله المنزل اليها ، ووحدة رسالاته ، مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها ، والى عواقب الانحراف عن هذه المقومات التي نيطت بها خلافة الانسان في الارض ؛ فمن كفر بها كفر بإنسانيته وفقد أسباب خلافته ، وارتكس في عالم الحيوان .

وقصة بني اسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ؛ والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة ، توحي بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة ، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى ..

فلننظر بعد هذا الإجمال في استعراض النص القرآني :

* * *

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم اليه راجعون » ..

إن المستعرض لتاريخ بني اسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار .. وهنا يذكرهم الله بنعمته التي أنعمها عليهم إجمالاً ، قبل البدء في تفصيل بعضها في الفقر التالية . يذكرهم بها ليدعوهم بعدها الى الوفاء بعهدهم معه – سبحانه – كي يتم عليهم النعمة ويمد لهم في الآلاء :

«يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم»..

فأي عهد هذا الذي يشار اليه في هذا المقام ؟ أهو العهد الأول ، عهد الله لآدم :

« فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين

كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» ..؟ أم هو العهد الكوني السابق على عهد الله هذا مع آدم . العهد المعقود بين فطرة الانسان وبارئه : أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له . وهو العهد الذي لا يحتاج الى بيان ، ولا يحتاج الى برهان ، لأن فطرة الانسان بذاتها تتجه اليه بأشواقها اللدنية ، ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف ؟ أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم جد اسرائيل، والذي سيجيء في سياق السورة : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال: اني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » ..؟ أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله على بني اسرائيل وقد رفع فوقهم الطور ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة ، والذي سيأتي ذكره في هذه الجولة ؟

إن هذه العهود جميعاً إن هي إلا عهد واحد في صميمها . إنه العهد بين البارىء وعباده أن يصغوا قلوبهم اليه ، وأن يسلموا أنفسهم كلها له . وهذا هو الدين الواحد . وهذا هو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعاً ؛ وسار موكب الايمان يحمله شعاراً له على مدار القرون .

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بني اسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية :

« وإياي فارهبون » ..

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بني اسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله ، مصدقاً لما معهم ؛ وألا يسارعوا الى الكفر به ، فيصبحوا أول الكافرين ؛ وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين :

« وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » ..

فما الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ إلا الدين الواحد الخالد . جاء به في صورته الأخيرة ؛ وهو امتداد لرسالة الله ، ولعهد الله منذ البشرية الأولى ، يضم جناحيه على ما مضى ، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتي ؛ ويوحد بين « العهد القديم [1] » « والعهد الجديد [2] » ، ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل ؛ ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين ؛ يلتقون على عهد الله ، ودين الله ؛ لا

(١) التوراة .

(٢) الانجيل .

يتفرقون شيعاً وأحزاباً ، وأقواماً وأجناساً ؛ ولكن يلتقون عباداً لله ، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة .

وينهى الله بني اسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم ، شراء للدنيا بالآخرة ، وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم — وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالاسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدره عليهم من منافع وإتاوات — ويدعوهم الى خشيته وحده وتقواه ..

« ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون » ..

والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي .. كله شنشنة يهود من قديم !! وقد يكون المقصود بالنهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة ، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء ، كما ورد في مواضع اخرى ، واستبقاء هذا كله في أيديهم بصد شعبهم كله عن الدخول في الاسلام ، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة .. على أن الدنيا كلها — كما قال بعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في تفسير هذه الآية — ثمن قليل ، حين تقاس الى الى الإيمان بآيات الله ، والى عاقبة الايمان في الآخرة عند الله .

ويمضي السياق يحذرهم ما كانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل ، وكتمان الحق وهم يعلمونه ، بقصد بلبلة الأفكار في المجتمع المسلم ، وإشاعة الشك والاضطراب :

« ولا تلبسوا الحق بالباطل . وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ..

ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم ، كما فصل القرآن في مواضع منه كثيرة ؛ وكانوا دائماً عامل فتنة وبلبلة في المجتمع الاسلامي ، وعامل اضطراب وخلخلة في الصف المسلم . وسيأتي من أمثلة هذا التلبيس الشيء الكثير !

ثم يدعوهم الى الاندماج في موكب الايمان ، والدخول في الصف ، وأداء عباداته المفروضة ، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم ، وهو ما عرفت به يهود من قديم :

« وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » ..

ثم ينكر عليهم — وبخاصة أحبارهم — أن يكونوا من الدعاة الى الايمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين ، وهم في الوقت ذاته يصدون قومهم عن الايمان بدين الله ، المصدق لدينهم القديم :

«أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ » ...

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني اسرائيل ، فإنه في إيحائه للنفس البشرية ، ولرجال الدين بصفة خاصة ، دائم لا يخص قوماً دون قوم ولا يعني جيلاً دون جيل .

إن آفة رجال الدين – حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة – أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ؛ يأمرون بالخير ولا يفعلونه ؛ ويدعون الى البر ويهملونه ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان ! كما كان يفعل أحبار يهود !

والدعوة الى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها . وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم ، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ، ويشهدون فعلاً قبيحاً ؛ فتملكهم الحيرة بين القول والفعل ؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة؛ وينطفىء في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة ، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيماً واقعياً لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق .. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها ؛ وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها .. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة .

والمطابقة بين القول والفعل ، وبين العقيدة والسلوك ، ليست مع هذا أمراً هيناً ، ولا طريقاً معبداً . إنها في حاجة الى رياضة وجهد ومحاولة. والى صلة بالله ، واستمداد منه ، واستعانة بهديه ؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره ، أو عما يدعو إليه غيره . والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته ، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه ؛ وقد يغالبها مرة ومرة ومرة ؛ ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى ،

ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله ؛ فأما وهو يركن الى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي، أقوى من كل قوي. قوي على شهوته وضعفه. قوي على ضروراته واضطراراته. قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه .

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذي كان يواجههم أولاً ، ويوجه الناس كلهم ضمناً ، الى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة .. وفي حالة اليهود كان مطلوباً منهم أن يؤثروا الحق الذي يعلمونه على المركز الخاص الذي يتمتعون به في المدينة ، وعلى الثمن القليل – سواء كان ثمن الخدمات الدينية أو هو الدنيا كلها – وأن يدخلوا في موكب الإيمان وهم يدعون الناس الى الإيمان ! وكان هذا كله يقتضي قوة وشجاعة وتجرداً . واستعانة بالصبر والصلاة :

« واستعينوا بالصبر والصلاة . وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون » ..

والغالب أن الضمير في إنها ضمير الشأن . أي إن هذه الدعوة الى الاعتراف بالحق في وجه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقة ، إلا على الخاشعين الخاضعين لله ، الشاعرين بخشيته وتقواه ، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين .

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيراً ؛ فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة ، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراماً للحق وإيثاراً له ، واعترافاً بالحقيقة وخضوعاً لها .

فما الاستعانة بالصلاة ؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب . صلة يستمد منها القلب قوة ، وتحس فيها الروح صلة ؛ وتجد فيها النفس زاداً أنفس من أعراض الحياة الدنيا .. ولقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام .. ومـا يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زاداً للطريق ، وريّاً في الهجير ، ومدداً حين ينقطع المدد ، ورصيداً حين ينفد الرصيد ..

واليقين بلقاء الله – واستعمال ظن ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة – واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور .. هو مناط الصبر والاحتمال ، وهو مناط التقوى والحساسية . كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم : قيم الدنيا وقيم الآخرة . ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمناً قليلاً ،

وعرضاً هزيلاً؛ وبدت الآخرة على حقيقتها، التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها.

وكذلك يجد المتدبر للقرآن في التوجيه الذي قصد بـه بنو إسرائيل أول مرة، توجيهاً دائماً مستمر الإيحاء للجميع ..

* * *

ومن ثم عودة الى نـداء بني إسرائيل، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالاً قبل الأخذ في التفصيل :

« يا بـني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يومـاً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخـذ منها عدل، ولا هم ينصرون » ..

وتفضيل بني اسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمـة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقـد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد .

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهدهم؛ وإطماع لهم ليتتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الاسلامية، فيعودوا الى موكب الايمان، والى عهد الله؛ شكراً على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة الى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون .

ومع الإطماع في الفضل والنعمة، التحذير من اليوم الذي يأتي وصفه :

« لا تجزي نفس عن نفس شيئاً » ..

فالتبعة فردية، والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً .. وهـذا هو المبدأ الاسلامي العظيم . مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الانسان، وعلى العدل المطلق من الله . وهو أقوم المبـادىء التي تشعر الانسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره . وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة انسانية تضاف الى رصيده من القيم التي يكرمه بهـا الاسلام .

« ولا يقبل منها شفاعة . ولا يؤخذ منها عدل » .

فلا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيماناً وعملاً صالحاً؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز

عن كفره ومعصيته .

« ولا هم ينصرون » ..

فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه .. وقد عبر هنـا بالجمع باعتبار مجموع النفوس التي لا تجزي نفس منها عن نفس ، ولا يقبل منهـا شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، وانصرف عن الخطاب في أول الآية الى صيغة الغيبة في آخرهـا للتعميم . فهذا مبدأ كلي ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين .

* * *

بعدئذ يمضي يعدد آلاء الله عليهم ، وكيف استقبلوا هذه الآلاء ، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق . وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم :

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلـكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنـــا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » ..

إنـــه يعيد على خيالهم ويستحيي في مشاعرهم صورة الكرب الذي كانوا فيـــه – باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد – ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب .

يقول لهم : واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة مـا كانوا يديمون عذابكم ، (من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائمـاً) وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه !! ثم يذكر لوناً من هذا العذاب . هو تذبيح الذكور واستحياء الإناث . كي يضعف ساعد بني اسرائيل ويثقل تبعاتهم !

وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيـــه بلاء من ربهم عظيم ، ليلقي في حسهم – وحس كل من يصادف شدة – أن إصابة العباد بالشدة هي امتحـان وبلاء ، واختبار وفتنة . وأن الذي يستيقظ لهـــذه الحقيقة يفيد من الشدة ، ويعتبر بالبلاء ، ويكسب من ورائها حين يستيقظ . والألم لا يذهب ضياعـاً اذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بهـا . والألم يهون على النفس حين تعيش بهـــذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفـــة والصبر والاحتمال ، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله ،

وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثم هذا التعقيب الموحى : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ..

فإذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب ..

« وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » ..

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكية التي نزلت من قبل. أما هنا فهو مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكي، او من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون الى فرق البحر ، ونجاة بني اسرائيل بقيادة موسى - عليه السلام - على مشهد منهم ومرأى! وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب [1] .

* * *

ثم يمضي السياق قدماً مع رحلة بني اسرائيل بعد خروجهم من مصر ناجين :

« وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » ..

وقصة اتخاذ بني اسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى - عليه السلام - عندما ذهب الى ميعاد ربه على الجبل ، مفصلة في سورة طه السابقة النزول في مكة . وهنا فقط يذكرهم بها ، وهي معروفة لديهم . يذكرهم بانحدارهم الى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم ، الذي أنقذهم باسم الله ، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب. ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة : « وأنتم ظالمون » .. ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلاً جسداً ، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول !

ومع هذا فقد عفا الله عنهم ، وآتى نبيهم الكتاب - وهو التوراة - فيه فرقان بين الحق والباطل ، عسى أن يهتدوا الى الحق البين بعد الضلال .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « طريقة القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » ..

ولم يكن بد من التطهير القاسي ؛ فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقوّمها إلا كفارة صارمة ، وتأديب عنيف . عنيف في طريقته وفي حقيقته :

« وإذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم » ..

اقتلوا أنفسكم . ليقتل الطائع منكم العاصي . ليطهره ويطهر نفسه .. هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة .. وإنه لتكليف مرهق شاق ، أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه. ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التي لا تتماسك عن شر ، ولا تتناهى عن نكر . ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل . وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام ؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم !

وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير :

« فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم » ..

* * *

ولكن إسرائيل هي إسرائيل ! هي هي كثافة حس ، ومادية فكر ، واحتجاباً عن مسارب الغيب .. فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة ، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم ، الذين اختارهم موسى لميقات ربه — الذي فصلت قصته في السور المكية من قبل — ويرفضون الايمان لموسى إلا أن يروا الله عياناً . والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم ، لينكشف تعنتهم القديم الذي يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم ، وطلبهم الخوارق منه ، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبت من صدقه :

« وإذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .. إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم الى المعرفة .. أم لعله التعنت والمعاجزة ..

والآيات الكثيرة ، والنعم الإلهية ، والعفو والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية ، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس ، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب

إلا تحت وقع العذاب والتنكيل ، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقـاً . وليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل ، والذي يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد : استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يرفع عنها السوط ، وتبطراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت اسرائيل ، وهكذا هي في كل حين ..

ومن ثم يجدفون هذا التجديف . ويتعنتون هذا التعنت :

« وإذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » :

ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف ، وهم على الجبل في الميقات المعلوم :

« فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » .

ومرة أخرى تدركهم رحمـة الله ، وتوهب لهم فرصة الحيـاة عسى أن يذكروا ويشكروا .. ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة :

« ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » ..

ويذكرهم برعايته لهم في الصحراء الجرداء حيث يسّر لهم طعاماً شهياً لا يجهدون فيه ولا يكدون ، ووقاهم هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره اللطيف :

« وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ..

وتذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة . والصحراء بغير مطر ولا سحب ، جحيم يفور بالنار ، ويقذف بالشواظ . وهي بالمطر والسحاب رخية ندية تصح فيهـا الأجسام والأرواح .. وتذكر الروايات كذلك أن الله سخر لهم « المن » يجدونه على الأشجار حلواً كالعسل ، وسخر لهم « السلوى » وهو طائر السماني يجدونه بوفرة قريب المنال . وبهذا توافر لهم الطعام الجيد ، والمقام المريح ، وأحلت لهم هذه الطيبات .. ولكن أتراهم شكروا واهتدوا .. إن التعقيب الأخير في الآية يوحي بأنهم ظلموا وجحدوا . وإن كانت عاقبة ذلك عليهم ، فما ظلموا إلا أنفسهم !

« وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ..

* * *

ويمضي السياق في مواجهتهم بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود :

« وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا : حطة . نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء، بما كانوا يفسقون»..

وتذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس ، التي أمر الله بني اسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها ، ويخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها، والتي نكص بنو اسرائيل عنها وقالوا : « يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ».. والتي قالوا بشأنها لنبيهم موسى عليه السلام : « إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ! » .. ومن ثم كتب عليهم ربهم التيه أربعين سنة ، حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع ابن نون ، فتح المدينة ودخلها .. ولكنهم بدلاً من أن يدخلوها سجداً كما أمرهم الله ، علامة على التواضع والخشوع ، ويقولوا : حطة .. أي حط عنا ذنوبنا واغفر لنا .. دخلوها على غير الهيئة التي أمروا بها ، وقالوا قولاً آخر غير الذي أمروا به ..

والسياق يواجههم بهذا الحادث في تاريخهم ؛ وقد كان مما وقع بعد الفترة التي يدور عنها الحديث هنا — وهي عهد موسى — ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة ، قديمه كحديثه ، ووسطه كطرفيه .. كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف !

وأيا كان هذا الحادث ، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه ، ويذكرهم بحادث يعلمونه.. فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة ؛ وأمرهم أن يدخلوها في هيئة خشوع وخضوع ، وأن يدعوا الله ليغفر لهم ويحط عنهم ؛ ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته . فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود :

« فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم » ..

ويخص الذين ظلموا بالذكر. إما لأنهم كانوا فريقاً منهم هو الذي بدل وظلم . وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعاً ، اذا كان قد وقع منهم جميعاً .

« فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » ..

والرجز : العذاب . والفسوق : المخالفة والخروج .. وكانت هذه واحدة من أفاعيل بني اسرائيل !

* * *

وكما يسَّر الله لبني اسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة ، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيه موسى — عليه السلام — والقرن يذكرهم بنعمة الله عليهم في هـذا المقام ، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام :

« وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنـا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منـه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » ..

لقد طلب موسى لقومه السقيا . طلبها من ربـه فاستجاب له . وأمره أن يضرب حجراً معيناً بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعـــدة أسباط بني إسرائيل ، وكانوا يرجعون الى اثني عشر سبطاً بعدة أحفاد يعقوب — وهو إسرائيل الذي ينتسبون اليه — وأحفاد إسرائيل — او يعقوب — هم المعروفون باسم الأسباط ، والذين يرد ذكرهم مكرراً في القرآن ، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل . وكانوا ما يزالون يتبعون النظام القبلي ، الذي تنسب فيه القبيلة الى رأسها الكبير .

ومن ثم يقول : « قد علم كل أناس مشربهم » .. أي العين الخـاصة بهم من الاثنتي عشرة عيناً . وقيل لهم ، على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد :

« كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين » ..

* * *

لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً.. ولكن البنية النفسية المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، أبت على القوم أن يرتفعوا الى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا في الصحراء .. لقد أخرجهم الله — على يدي نبيهم موسى — عليـــه السلام — من الذل والهوان . ليورثهم الأرض المقـدسة ، وليرفعهم من المهانـة والضعـة .. وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية . ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية . حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينـــة . حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم ، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة ، في طريقهم الى العزة والحرية والكرامة .

إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوهـا في مصر . يريدون العـدس والثوم والبصل والقثاء .. وما اليها ! وهذا ما يذكرهم القرآن بـه . وهم يدعون في المدينة دعاواهم العريضة :

« وإذ قلتم : يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنـا ربك يخرج لنا ممـا تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قـال : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ اهبطوا مصراً فإن لكم مـا سألتم .. وضربت عليهم الذلة والمسكنـة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ..

ولقد تلقى موسى — عليه السلام — طلبهم بالاستنكار :

« أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ » ..

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية ؟

« اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » ..

إما بمعنى أنما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء؛ فهو موفور في أي مصر من الأمصار ، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها .. وإما بمعنى عودوا إذن الى مصر التي أخرجتم منها .. عودوا الى حياتكم الدارجة المألوفة . الى حياتكم الخانعةالذليلة .. حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها .. ويكون هذا من موسى — عليه السلام — تأنيباً لهم وتوبيخاً ..

وأنا أرجح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين ، أرجحه بسبب مـا أعقبه في السياق من قوله تعالى :

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » ..

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وعودتهم بغضب الله ، لم يكن — من الناحية التاريخية — في هذه المرحلة من تاريخهم ؛ إنما كان فيما بعد ، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها :

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بمـا عصوا وكانوا يعتدون » ..

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال . إنمـا عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء !

فناسب أن يكون قول موسى لهم : « اهبطوا مصراً » هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه ، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان !

* * *

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة. فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم — وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين — وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الإعتداء، وعصوا أبشع المعصية . وكان لهم في كل ميدان من هـذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل !

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوي عريضة عجيبة . كانوا دائماً يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون ، وهم وحدهم شعب الله المختار ، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله ؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك .. وهنا يكذّب القرآن هـذه الدعوى العريضة ، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية ، التي تتخلل القصص القرآني ، أو تسبقه أو تتلوه . يقرر قاعدة وحدة الإيمـــان .. ووحدة العقيدة ، متى انتهت الى إسلام النفس لله ، والإيمان بـــه إيماناً ينبثق منه العمل الصالح . وأن فضل الله ليس حجراً محجوراً على عصبية خاصة ، إنمـا هو للمؤمنين أجمعين ، في كل زمان وفي كل مكان ، كل بحسب دينه الذي كان عليه ، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين — من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمـــل صالحاً — فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

والذين آمنوا يعني بهم المسلمين . والذين هادوا هم اليهود — إمـا بمعنى عادوا الى الله ، وإمـــا بمعنى أنهم أولاد يهوذا — والنصارى هم أتباع عيسى — عليه السلام — والصابئون : الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة ، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام ، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها ، فاهتدوا الى التوحيد ، وقالوا : إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ، مـــلة إبراهيم ، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم . فقال عنهم المشركون : إنهم صبأوا — أي مالوا عن دين آبائهم — كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك . ومن ثم

سموا الصابئة . وهـــذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير .

والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً ، فإن لهم أجرهم عنـــد ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فالعبرة بحقيقة العقيدة ، لا بعصبية جنس أو قوم .. وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية. أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير .

* * *

ثم يمضي السياق يستعرض مواقف بني إسرائيل في مواجهة يهود المدينة بمسمع من المسلمين ..

« وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مـا فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلـك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » ..

وتفصيل هذا الميثاق وارد في سور أخرى ، وبعضه ورد في هذه السورة فيما بعد. والمهم هنا هو استحضار المشهد ، والتناسق النفسي والتعبيري بـين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة . وأن يعزموا فيه عزيمة . فأمر العقيدة لا رخاوة فيـه ولا تميع ، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة . إنه عهد الله مع المؤمنين .. وهو جد وحق ، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق .. وله تكاليف شاقة ، نعم ! ولكن هذه هي طبيعته . إنه أمر عظيم. أعظم من كل مـا في هذا الوجود . فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه ، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف . ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة ، كما قال رسول الله ﷺ وقد نودي للتكليف : « مضى عهد النوم يا خديجة » .. وكما قال له ربـه : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » .. وكما قال لبني إسرائيل :

« خذوا ما آتيناكم بقوة » . « واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » ..

ولا بـد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم .. لا بـد مع هذا من تذكر ما فيه ، واستشعار حقيقته ، والتكيف بهذه الحقيقة ، كي لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحميـــة وقوة . فعهد الله منهج حياة ، منهج يستقر في القلب تصوراً

وشعوراً ، ويستقر في الحياة وضعاً ونظاماً ، ويستقر في السلوك أدباً وخلقاً ، وينتهي الى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير .

ولكن هيهات ! لقد أدركت اسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها جبلتها :

« ثم توليتم من بعد ذلك » ..

ثم أدركتها رحمة الله مرة اخرى وشملها فضله العظيم ؛ فأنقذها من الخسار المبين :

« فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » ..

* * *

ومرة أخرى يواجههم بمظهر من مظاهر النكث والنكسة ، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك به ، والضعف عن احتمال تكاليفه ، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب :

« ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها ، وموعظة للمتقين » ..

وقد فصل القرآن حكاية اعتدائهم في السبت في موضع آخر فقال : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » .. فلقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس ، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدساً لا يعملون فيه للمعاش .. ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت ، وتختفي في غيره ! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود ! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع ؟ أتتركه وفاء بعهد واستمساكاً بميثاق ؟ إن هذا ليس من طبع يهود !

ومن ثم اعتدوا في السبت . اعتدوا على طريقتهم الملتوية . راحوا يحوطون على الحيتان في يوم السبت ، ويقطعونها عن البحر بحاجز ، ولا يصيدونها ! حتى اذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز !

« فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » ..

لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله ، والنكوص عن مقام الانسان ذي الإرادة . فانتكسوا بهذا الى عالم الحيوان والبهيمة ، الحيوان الذي لا إرادة له ، والبهيمة التي لا ترتفع على دعوة البطون ! انتكسوا بمجرد تخليهم عن الخصيصة الأولى التي تجعل من الانسان انساناً . خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله .

وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا اليها بأرواحهم

وأفكارهم ، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر في السحنة وتلقى ظلها العميق !

ومضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين في زمانها وفيما يليه ، وموعظة نافعة للمؤمنين في جميع العصور :

« فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » ..

* * *

وفي نهاية هذا الدرس تجيء قصة « البقرة » .. تجيء مفصلة وفي صورة حكاية ، لا مجرد إشارة كالذي سبق ، ذلك أنها لم ترد من قبل في السور المكية ، كما أنها لم ترد في موضع آخر ؛ وهي ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة، وتمحل المعاذير ، التي تتسم بها اسرائيل :

« وإذ قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا : أتتخذنا هزوا؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر، عوان بين ذلك، فافعلوا ما تؤمرون. قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال : إنه يقول : إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، مسلمة لا شية فيها . قالوا : الآن جئت بالحق. فذبحوها وما كادوا يفعلون.. وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا : اضربوه ببعضها، كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون » ..

وفي هذه القصة القصيرة — كما يعرضها السياق القرآني — مجال للنظر في جوانب شتى .. جانب دلالتها على طبيعة بني اسرائيل وجبلتهم الموروثة . وجانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق ..

إن السمات الرئيسية لطبيعة اسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه : انقطاع الصلة بين قلوبهم ، وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الايمان بالغيب ، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل . ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان !

لقد قال لهم نبيهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ . فنبيهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم ؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه ، إنما هو أمر الله ، الذي يسير بهم على هداه .. فماذا كان الجواب ؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم ! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله – فضلا على أن يكون رسول الله – أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس :

« قالوا : أتتخذنا هزواً ؟ » .

وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله ؛ وأن يردهم برفق ، وعن طريق التعريض والتلميح ، الى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جل علاه ؛ وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله ، لا يعرف ذلك الادب ولا يتوخاه :

« قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » ..

وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا الى أنفسهم ، ويرجعوا الى ربهم ، وينفذوا أمر نبيهم .. ولكنها إسرائيل !

نعم . لقد كان في وسعهم – وهم في سعة من الامر – أن يمدوا أيديهم الى أية بقرة فيذبحوها ، فإذا هم مطيعون لأمر الله ، منفذون لإشارة رسوله . ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم ، فإذا هم يسألون : « قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ » .. والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئاً فيا أنهى اليهم ! فهم أولاً : يقولون : « ادع لنا ربك » .. فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك ! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه ! وهم ثانياً : يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم : « ما هي ؟ » والسؤال عن الماهية في هذا المقام – وإن كان المقصود الصفة – إنكار واستهزاء .. ما هي ؟ إنها بقرة . وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة : بقرة وكفى !

هنا كذلك يردهم موسى الى الجادة ، بأن يسلك في الإجابة طريقاً غير طريق السؤال. إنه لا يجيبهم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جدل شكلي.. إنما يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين . يجيبهم عن صفة البقرة :

« قال : إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك » ..

إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة ، وسط بين هذا وذلك . ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة :

« فافعلوا ما تؤمرون » ..

ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية ؛ وكان حسبهم وقـــد ردهم نبيهم الى الجادة مرتين ، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي ، أن يعمدوا الى أيـــة بقرة من أبقـــارهم ، لا عجوز ولا صغيرة ، متوسطة السن ، فيخلصوا بهـــا ذمتهم ، وينفذوا بذبحها أمر ربهم ، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيـــد والتضييق .. ولكن إسرائيل هي إسرائيل !

لقد راحوا يسألون :

« قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ » ..

هكذا مرة أخرى : « ادع لنا ربك » ! ولم يكن بد — وقـــد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل — أن يأتيهم الجواب بالتفصيل :

« قال : إنه يقول ، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ..

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار — وكانوا من الأمر في سعة — فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة .. مجرد بقرة .. بل عن بقرة متوسطة السن ، لا عجوز ولا صغيرة ، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها ؛ وهي بعد هـــذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء : « تسر الناظرين » .. وسرور النـــاظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة ؛ فهذا هو الشائع في طباع الناس : أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا ، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا .

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية ، ولكنهم يمضون في طريقهم ، يعقدون الأمور ، ويشددون على أنفسهم ، فيشدد الله عليهم . لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية :

« قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » ..

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل :

« إن البقر تشابه علينا » ..

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة . فهم يقولون :

« وإنا إن شاء الله لمهتدون » ..

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيداً ، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصراً وضيقاً ، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة ، كانوا في سعة منها ، وفي غنى عنها :

« قال : إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، مسلمة لاشية فيها » ..

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر . صفراء فاقع لونها فارهة فحسب . بل لم يعد بد أن تكون - مع هذا - بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع ؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة .

هنا فقط .. وبعد أن تعقد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار:

« قالوا : الآن جئت بالحق » ..

الآن ! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً . أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة !

« فذبحوها وما كادوا يفعلون » !!

عندئذ - وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف - كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف :

« وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا : اضربوه ببعضها . كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون » ..

وهنا نصل الى الجانب الثاني من جوانب القصة . جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . وهنا يتغير السياق من الحكاية الى الخطاب والمواجهة :

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة .. لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم ؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه . ولم يكن هناك شاهد ؛ فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ؛ وكان ذبح البقرة وسيلة الى إحيائه ، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح .. وهكذا كان ، فعادت إليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله؛ وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين .

ولكن . فيم كانت هذه الوسيلة ، والله قادر على أن يحي الموتى بلا وسيلة ؟ ثم ما

مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث ؟

إن البقر يذبح قرباناً كما كانت عادة بني إسرائيل .. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة الى جسد قتيل . وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء .. إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ، التي لا يعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و : « كذلك يحي الله الموتى » .. كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع ؛ وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر .

إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس . ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير .. كيف ؟ .. هذا ما لا أحد يدريه . وما لا يمكن لأحد إدراكه .. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية ، لا سبيل إليه في عالم الفانين ! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها : « ويريكم آياته لعلكم تعقلون » ..

وأخيراً نجيء الى جمال الأداء وتناسقه مع السياق ..

هذه قصة قصيرة نبدؤها ، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه . نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا ، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم .

ثم تتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه ، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه ؛ على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه ، فكان يسأله ، ثم يعود اليهم بالجواب.. ولكن سياق القصة لا يقول : إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه .. إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله ، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو اسرائيل !

ثم ننتهي الى المباغتة في الخاتمة — كما بوغت بها بنو اسرائيل — انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً ، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة ، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة !

ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل [1] .

(١) يراجع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

وتعقيباً على هـذا المشهد الأخير من القصة ، الذي كان من شأنه أن يستجيش في قلوب بني اسرائيل الحساسية والخشية والتقوى ؛ وتعقيباً كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعبر والعظات ، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة او أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون » ..

والحجارة التي يقيس قلوبهم اليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى .. هي حجارة لهم بها سابق عهد . فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتـا عشرة عيناً ، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليـه الله وخر موسى صعقاً ! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى .. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة .. ومن ثم هذا التهديد :

« وما الله بغافل عما تعملون » ..

وبهذا يختم هـذا الشطر من الجولة مع بني اسرائيل في تاريخهم الحـافل بالكفر والتكذيب ، والالتواء واللجـاجة ، والكيد والدس ، والقسوة والجدب ، والتمرد والفسوق ..

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥ ؟ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦ ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟ ٧٧ .

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هٰذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا . فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ٧٩ .

« وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً . قُلْ : أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٠ ؟ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨٢ .

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ، وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ، وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ ، وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ٨٣ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ٨٦ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِٱلرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ٨٧ ؟

« وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ٨٨ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ٨٩ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ ، بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُم : آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ ٱللهُ قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩١ ؟ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٩٢ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا . قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ : بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩٣ .

« قُلْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِنْدَ ٱللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٩٤ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦ .

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ ٩٩ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُو ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ؛ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ ؛ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ؛ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٢ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٣ » ...

انقضى المقطع السابق في السورة في تذكير بني اسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل ؛ وباستعراض مشاهد الإنعام والجحود ، بعضها باختصار وبعضها بتطويل ؛ وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت اليه قلوبهم في نهـــاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب ، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها .

فالآن يأخذ السياق في الاتجاه بالخطاب الى الجماعة المسلمة يحدثها عن بني اسرائيل، ويبصرها بأساليبهم ووسائلهم في الكيد والفتنة ؛ ويحذرهـا كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم،فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل. ويدل طول هذا الحديث ، وتنوع أساليبه على ضخامة مـا كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود !

وبين آن وآخر يلتفت السياق الى بني اسرائيل ليواجههم –على مشهد من المسلمين– بـــا أخذ عليهم من المواثيق ، وبما نقضوا من هذه المواثيق ؛ وبمـــا وقع منهم من انحرافات ونكول عن العهد وتكذيب بأنبيائهم ، وقتلهم لهؤلاء الأنبيـــاء الذين لا يطاوعونهم على هواهم ، ومن مخـالفة لشريعتهم ، ومن إلتوائهم وجدالهم بالبـاطل ، وتحريفهم لما بين أيديهم من النصوص .

يستعرض جدالهم مع الجماعة المسلمة وحججهم ودعاويهم الباطلة، ويلقن الرسول ﷺ أن يفضح دعاويهم ، ويفند حججهم ، ويكشف زيف ادعاءاتهم ، ويرد عليهم كيدهم بالحق الواضح الصريح :

فلقد زعموا أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة بحكم مـــا لهم من المكانة الخاصة عند الله ! فلقن الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم قولهم هذا : « قل: أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ » ..

وكانوا اذا دعوا الى الاسلام « قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » .. فلقن الله رسوله ﷺ أن يفضح دعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل اليهم : « قل : فلمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ؟ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنـا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! » ..

وكانوا يدعون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس . فلقن الله رسوله ﷺ أن يتحداهم بدعوتهم الى المباهلة أي أن يجتمع الفريقان : هم والمسلمون ، ثم يدعون الله أن يميت الكاذب : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .. وقرر أنهم لن يتمنوه أبداً — وهذا ما حدث — فقد نكصوا عن المباهلة لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون !

وهكذا يمضي السياق في هذه المواجهة ، وهذا الكشف ، وهذا التوجيه .. ومن شأن هـذه الخطة أن تضعف — او تبطل — كيد اليهود في وسط الصف المسلم ؛ وأن تكشف دسائسهم وأحابيلهم ؛ وأن تدرك الجمـاعة المسلمة طريقـة اليهود في العمل والكيد والادعاء ، على ضوء ما وقع منهم في تاريخهم القديم .

وما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذ المكر ومن تلك الدسائس ؛ غير أن الأمـة المسلمة لا تنتفع — مع الأسف — بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهـذا الهدي الإلهي ، الذي انتفع به أسلافها ، فغلبوا كيد اليهود ومكرهم في المدينة ، والدين ناشىء ، والجماعة المسلمة وليدة .. وما يزال اليهود — بلؤمهم ومكرهم — يضللون هـذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنهـا ، كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية ، وعدتها الواقية . وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية ، وينابيع معرفتها الصافية .. وكل من يصرف هـذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود ؛ سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أم لم يرد ، فسيظل اليهود في مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التي تستمد منهـا وجودها وقوتها وغلبتها — حقيقة العقيدة الايمانية والمنهج الايماني والشريعة الايمانية — فهذا هو الطريق . وهذه هي معالم الطريق :

* * *

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ؟ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : أتحدثونهم بمـا فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ او لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون ؟ » ..

كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هي التي صور الله بهـا قلوب بني اسرائيل

في نهاية الدرس الماضي . صورة الحجارة الصلدة التي لا تنض منها قطرة ، ولا يلين لها مس ، ولا تنبض فيها حياة .. وهي صورة توحي باليأس ، من هـذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية .. وفي ظل هذا التصوير ، وظل هذا الإيحـاء ، يلتفت السياق إلى المؤمنين ، الذين يطمعون في هداية بني اسرائيل ، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الايمان ، وأن يفيضوا عليها النور .. يلتفت الى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس من المحاولة ، وبالقنوط من الطمع :

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ » ..

ألا إنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمـان طبيعة أخرى ، واستعداد آخر . إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة ، مفتحة المنافذ للأضواء ، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء . وبمـا فيها من حساسية وتحرج وتقوى . هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعـد تعقله . تحرفه عن عـلم وإصرار . فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة ، تتحرج من هـذا التحريف والالتواء .

والفريق المشار اليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم في كتابهم هم الأحبار والربانيون ، الذين يسمعون كلام الله المـنزل على نبيهم موسى في التوراة ثم يحرفونه عن مواضعه ، ويؤولونه التأويلات البعيدة التي تخرج به عن دائرته . لا عـن جهل بحقيقة مواضعه ، ولكن عن تعمد للتحريف ، وعـلم بهذا التحريف . يدفعهم الهوى ، وتقودهم المصلحة ، ويحدوهم الغرض المريض ! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ وقد انحرفوا عن الحق الذي جاء به نبيهم موسى — عليه السلام — ومن باب أولى — وهذا خراب ذممهم ، وهذا إصرارهم على الباطل وهم يعلمون بطلانه — أن يعارضوا دعوة الاسلام ، ويروغوا منها ويختلقوا عليها الأكاذيب !

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ » ..

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وهم يضيفون الى خراب الذمة ، وكتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه .. الرياء والنفاق والخداع والمراوغة ؟

وقد كان بعضهم اذا لقوا المؤمنين قالوا : آمنا .. أي آمنـــا بأن محمد مرسل ، بحكم ما عندهم في التوراة من البشارة به ، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته ، ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عاداهم . وهو معنى قوله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » .. ولكن : « إذا خلا بعضهم الى بعض » .. عاتبوهم على مـا أفضوا المسلمين من صحة رسالة محمد ﷺ ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم ، فقـــال بعضهم لبعض : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم بـه عند ربكم » .. فتكون لهم الحجة عليكم ؟.. وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه ؛ فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ! أمـا اذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجـــة !.. وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض في هذا : « أفلا تعقلون ؟ » .. فيا للسخرية من العقل والتعقل الذي يتحدثون عنه مثل هذا الحديث !!

ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هذا قبل أن يمضي في استعراض ما يقولون وما يفعلون :

« أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ » ..

* * *

ثم يستطرد يقص على المسلمين من أحوال بني اسرائيل : إنهم فريقـــان . فريق أمي جاهل ، لا يدري شيئاً من كتابهم الذي نزل عليهم ، ولا يعرف منه إلا أوهاماً وظنوناً ، وإلا أماني في النجاة من العذاب ، بما أنهم شعب الله المختار ، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام ! وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزوّر على كتاب الله ، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة ، ويكتم منه مـا يشاء ، ويبدي منه ما يشاء ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنه من كتاب الله .. كل هذا ليربح ويكسب ، ويحتفظ بالرياسة والقيادة :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمـــاني وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا بـه ثمناً قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » ..

فكيف ينتظر من أمثـال هؤلاء وهؤلاء ان يستجيبوا للحق ، وأن يستقيموا على الهدى ، وأن يتحرجوا من تحريف ما يقف في طريقهم من نصوص كتابهم نفسه ؟ إن

هؤلاء لا مطمع في أن يؤمنوا للمسلمين. وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم . الويل والهلاك لهم مما كتبت ايديهم من تزوير على الله ؛ والويل والهلاك لهم مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق !

* * *

من تلك الأماني التي لا تستقيم مع عدل الله ، ولا تتفق مع سنته ، ولا تتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء .. أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مها فعلوا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات يخرجون بعدها الى النعيم .. علام يعتمدون في هذه الأمنية ؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون ؟ وكأنها معاهدة محدودة الأجل معلومة الميقات ؟ لا شيء إلا أماني الأميين الجهال ، وأكاذيب المحتالين العلماء ! الأماني التي يلجأ اليها المنحرفون عن العقيدة الصحيحة ، حتى يطول بهم الأمد ، وينقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم ، فلا يبقى لهم منه إلا اسمه وشكله ، دون موضوعه وحقيقته ويظنون أن هذا يكفيهم للنجاة من العذاب بحكم ما يعلنونه بألسنتهم من أنهم على دين الله :

« وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل : اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ » ..

وهذا هو التلقين الإلهي للحجة الدامغة : « أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ » .. فأين هو هذا العهد ؟ « أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ » .. وهذا هو الواقع . فالاستفهام هنا للتقرير . ولكنه في صورة الاستفهام يحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ !

* * *

هنا يأتيهم الجواب القاطع والقول الفصل في هذه الدعوى ، في صورة كلية من كليات التصور الإسلامي ، تنبع من فكرته الكلية عن الكون والحياة والانسان : إن الجزاء من جنس العمل ، ووفق هذا العمل .

« بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ..

ولا بد أن نقف قليلاً أمام ذلك التصوير الفني المعجز لحالة معنوية خاصة ، وأمام

هذا الحكم الإلهي الجازم نكشف عن شيء من أسبابه وأسراره :

« بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته .. » ..

الخطيئة كسب ؟ إن المعنى الذهني المقصود هو اجتراح الخطيئة . ولكن التعبير يومىء الى حالة نفسية معروفة .. إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ؛ ويحسبها كسباً له — على معنى من المعاني — ولو أنها كانت كريهة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ؛ لأنه خليق لو كرهها وأحس ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها — حتى لو اندفع لارتكابها — وأن يستغفر منها ، ويلوذ الى كنف غير كنفها . وفي هذه الحالة لا تحيط به ، ولا تملأ عليه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير .. وفي التعبير : « وأحاطت به خطيئته » تجسيم لهذا المعنى . وهذه خاصية من خواص التعبير القرآني ، وسمة واضحة من سماته ؛ تجعل له وقعاً في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة ، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة. وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته : يعيش في إطارها ، ويتنفس في جوها ، ويحيا معها ولها .

عندئذ .. عندما تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة .. عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم :

« فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

ثم يتبع هذا الشطر بالشطر المقابل من الحكم .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ..

فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح .. وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الإيمان .. وما أحوجنا — نحن الذين نقول إنا مسلمون أن نستيقن هذه الحقيقة : أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح . فأما الذين يقولون : إنهم مسلمون ثم يفسدون في الأرض ، ويحاربون الصلاح في حقيقته الأولى وهي إقرار منهج الله في الأرض وشريعته في الحياة ، وأخلاقه في المجتمع ، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شيء ، وليس لهم من ثواب الله شيء ، وليس لهم من عذابه واق ولو تعلقوا بأماني كأماني اليهود التي بين الله لهم وللناس فيها هذا البيان .

* * *

ثم يمضي السياق يحدث الجماعة المسلمة عن حال اليهود ، ومواقفهم التي يتجلى فيها العصيان والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق . ويواجه اليهود بهذه المواقف على مشهد من المسلمين :

« وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ؛ وبالوالدين إحسانا ، وذي القربى واليتامى والمساكين ؛ وقولوا للناس حسنا ؛ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة .. ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . ثم أقررتم وأنتم تشهدون .. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » ..

ولقد سبقت الإشارة الى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي . فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق .

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل ، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل ، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه .. أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله . هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً ، فتنكروا لها وأنكروها .

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله .. القاعدة الأولى للتوحيد المطلق. وتضمن الإحسان الى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين. وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة . وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه ..

ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى هي وحدة دين الله ؛ وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله . والثانية هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين ، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق .

وهنا — في هذا الموقف المخجل — يتحول السياق من الحكاية الى الخطاب، فيوجه

القول الى بني إسرائيل . وكان قد ترك خطابهم والتفت الى خطاب المؤمنين . ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى :

« ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » ..

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب !

ويستمر السياق يوجه الخطاب الى بني إسرائيل ، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله ..

« وإذ أخذنا ميثاقكم : لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . ثم أقررتم وأنتم تشهدون » ..

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون ؟

« ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ » ..

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج . كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان أشد ما يكون حيان من العرب عداء . وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين .. كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ؛ فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى ، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء – وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته ..

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن ؛ وهو يسألهم في استنكار :

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ » ..

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة . مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً :

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون » ..

ثم يلتفت الى المسلمين والى البشرية جميعاً ، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم :

« أولئك الذين اشتروا الحيـــاة الدنيا بالآخرة . فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » ..

وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة .. فهؤلاء هم هناك :

« فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » ..

وقصة شرائهم الحيـــاة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة : هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله ، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفـة دينهم وكتابهم . فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم الى حلفين، هي هي خطة إسرائيل التقليدية ، في إمساك العصا من الوسط ؛ والانضمام الى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط ، لتحقيق بعض المغانم على أية حال ؛ وضمان صوالح اليهود في النهـــاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك ! وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه؛ ويجعل اعتماده كله على الدهاء ، ومواثيق الارض ، والاستنصار بالعباد لا برب العباد . والايمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ، ويناقض تكاليف شريعتهم ، باسم المصلحة او الوقاية . فلا مصلحة إلا في اتبـاع دينهم ، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم .

* * *

ثم يمضي السياق يواجه بني اسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء.. أنبيائهم هم ، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءوهم بالحق ، الذي لا يخضع للأهواء :

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ؛ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بمـا لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون ؟ » ..

ولقد كانت حجة بني اسرائيل في إعراضهم عن الاسلام ، وإبائهم الدخول فيه ، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم ، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم .. فهنا

يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم. ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق ، الذي لا يخضع لأهوائهم .

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى — عليه السلام — وقد آتاه الله الكتاب . ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى ، يقفو بعضهم بعضاً ؛ وكان آخرهم عيسى ابن مريم . وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل — عليه السلام — فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام ؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم ؛ والذي لا يملكون هم إنكاره ، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به :

« أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم : ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ » !

ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة ، ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة ، وانطمست فيها عدالة المنطق الانساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة الى مصدر ثابت — غير المصدر الانساني المتقلب — مصدر لا يميل مع الهوى ، ولا تغلبه النزوة . وأن يرجع الناس الى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب ، والصحة والمرض ، والنزوة والهوى ؛ لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى !

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني اسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله ، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الارض والامانة التي ناطها بهم الله . فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو اسرائيل ، وطرحوا منهج الله وشريعته ، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة، وكذبوا فريقاً، ضربهم الله بما ضرب به بني اسرائيل من قبل ، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان ، والشقاء والتعاسة.. إلا أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم ، وإلا أن يأخذوه بقوة ، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون .

* * *

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم ، يبينه ويقرره ، ثم يجابههم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد ، فإذا هم هم ، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل:

« وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم – وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا – فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله – بغياً ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده – فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين . واذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! » ..

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد ، ويتحول – في بعض المواضع – الى صواعق وحمم .. إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا ؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم ، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق ؛ وأثرتهم البغيضة ، وعزلتهم النافرة ، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير ، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من فضله . جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الاسلام ورسوله الكريم ..

« وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » ..

قالوا : إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ اليها دعوة جديدة ، ولا تستمع الى داعيه جديد! قالوها تيئيساً لمحمد ﷺ والمسلمين ، من دعوتهم الى هذا الدين ؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول .. ويقول الله رداً على قولتهم : « بل لعنهم بكفرهم » .. أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم . فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى.. « فقليلاً ما يؤمنون ».. أي قليلا ما يقع منهم الايمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاءكفرهم السابق، وضلالهم القديم . أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الايمان ، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم .. وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع .

وقد كان كفرهم قبيحاً ، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه ، واستفتحوا به على الكافرين ، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم . وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم – وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا – فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ..

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر :

« فلعنة الله على الكافرين » ..

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه ؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها :

« بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ، بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده..فباءوا بغضب على غضب،وللكافرين عذاب مهين»..

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا.. لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم ! والانسان يعادل نفسه بثمن ما ، يكثر أو يقل . أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها . ولكن هذا هو الواقع ، وإن بدا تمثيلا وتصويراً . لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا الى الموكب الكريم العزيزولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين . وبماذا خرجوا في النهاية ؟ خرجوا بالكفر ، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه !

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم ، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. وكان هذا بغياً منهم وظلماً . فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب ؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين ، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم .

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد ؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ؛ ولا تشعر بالوشيجة الانسانية الكبرى ، التي تربط البشرية جميعاً .. وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر ؛ ويكنون للناس البغضاء ، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن ؛ ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض؛ وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم ، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفىء؛ وهلاكاً

يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس .. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة : « بغياً .. أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » ..

« وإذ قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » ..

وكان هذا هو الذي يقولونه اذا دعوا الى الايمان بالقرآن وبالاسلام . كانوا يقولون: « نؤمن بما أنزل علينا » .. ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه . سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام ، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين .

والقرآن يعجب من موقفهم هذا ، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم : « وهو الحق مصدقاً لما معهم » ..

وما لهم وللحق ؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم ! ما داموا لم يستأثروا هم به ؟ إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم . لا بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به..ويلقن الله نبيه ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم :

« قل : فلمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ » .

لِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل اليكم ؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى — نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر — :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » ..

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات ، وفي حياة موسى نفسه ، كان من وحي الايمان ؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل اليكم ؟

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة . بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية :

« واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » ..

والسياق هنا يلتفت من الخطاب الى الحكاية.. يخاطب بني اسرائيل بما كان منهم، ويلتفت الى المؤمنين — والى الناس جميعاً — فيطلعهم على ما كان منهم .. ثم يلقن

الرسول ﷺ أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الايمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح :

« قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! »

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرَين المصورَين العجيبَين: « قالوا : سمعنا وعصينا » .. « وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » ..

إنهم قالوا : سمعنا . ولم يقولوا عصينا . ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا ؟ إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق . لقد قالوا بأفواههم : سمعنا . وقالوا بأعمالهم : عصينا . والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته . وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق .. وهذا التصوير الحي للواقع يومىء الى مبدأ كلي من مبادىء الاسلام : إنه لا قيمة لقول بلا عمل . إن العمل هو المعتبر . أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة ، وهي مناط الحكم والتقدير .

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها: «وأشربوا في قلوبهم العجل» فهي صورة فريدة . لقد أشربوا . أشربوا بفعل فاعل سواهم . أشربوا ماذا ؟ أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟ أشربوه في قلوبهم ! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة ، وتلك الصورة الساخرة الهازئة : صورة العجل يُدخل في القلوب إدخالاً ، ويحشر فيها حشراً ، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه ، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل ، حتى لكأنهم أشربوه إشراباً في القلوب ! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور ، بالقياس الى التعبير الذهني المفسر .. إنه التصوير .. السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل .

* * *

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة .. إنهم شعب الله المختار . إنهم وحدهم المهتدون . إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة . إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب .

وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد ﷺ لا نصيب لهم في الآخرة . والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبوعود رسولهم ووعود القرآن لهم .. فأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو اليهود الى مباهلة . أي بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما :

« قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون النـــاس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة ، ولن يطلبوا الموت. لأنهم يعلمون أنهم كاذبون ؛ ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم . وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة . وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيـا بالموت الذي طلبوه ، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذي قدموه .. ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي . فهم أحرص الناس على حياة . وهم والمشركون في هذا سواء :

« ولن يتمنوه أبداً بمـا قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعمر ألف سنة. وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون » .

لن يتمنوه . لأن مـا قدمته أيديهم للآخرة لا يطمعهم في ثواب ، ولا يؤمنهم من عقاب . إنه مدخل لهم هناك ، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون .

وليس هذا فحسب . ولكنهـا خصلة أخرى في يهود . خصلة يصورهـا القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة: « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» .. أية حياة . لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الاطلاق ! حيـاة فقط ! حياة بهذا التنكير والتحقير ! حياة ديدان او حشرات ! حياة والسلام ! إنها يهود ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء . ومـا ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقـة . فاذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس ، وعنت الجباه جبناً وحرصاً على الحيـاة ... اي حياة !

« ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون » ..

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة . ومـا أقصر الحياة الدنيا ومـــا أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ؛ ولا تطمع في غير أنفـاس وساعات على الأرض معدودة .. إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمـــة يهبها الله للفرد الفاني العاني ، المحدود الأجل الواسع الأمل ومـا يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ الى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في روحـــه ناقصة او مطموسة . فالإيمان

بالآخرة — فوق انه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الاوفى — هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الارض ؛ إنما يتجاوزها الى البقاء الطليق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه ، والى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً الى جوار الله .

* * *

ويمضي السياق بتلقين جديد من الله لرسوله ﷺ يتحداهم بـه ، ويعلن الحقيقة التي يتضمنها على رؤوس الأشهاد :

« قل : من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ، فان الله عدو للكافرين » ..

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود . سمة عجيبة حقاً .. لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد ، وقادهم هذا الى تناقض لا يستقيم في عقل .. لقـد سمعوا ان جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد ﷺ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبـة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة ، فيزعموا ان جبريل عدوهم ، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب ؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الايمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل ! ولو كان الذي ينزل اليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا ، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب !

إنها الحماقة المضحكة . ولكن الغيظ والحقد يسوقان الى كل حماقة . وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم او ضدهم ، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير ؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره !

« قل : من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله » ..

فما كان له من هوى شخصي ، ولا إرادة ذاتية ، في ان ينزله على قلبك ، إنمـا هو منفذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك .. والقلب هو موضع التلقي ، وهو الذي يفقه بعد التلقي ، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ .. والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الاداك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال .

نزله على قلبك .. « مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » ..

والقرآن يصدق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية . فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الالهية .. وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة ، التي تتفتح له وتستجيب .. وهذه حقيقة ينبغي إبرازها.. ان نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الايناس ، وتفتح له من أبواب المعرفـة ، وتفيض فيه من الايحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الايمان . ومن ثم يجد فيه الهدى ، كما يستروح فيه البشرى. وكذلك نجـد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسبات شتى .. « هدى للمتقين » .. « هدى لقوم يؤمنون » .. « هدى لقوم يوقنون » .. « شفاء ورحمة للمؤمنين » . فالهدى ثمرة الايمان والتقوى واليقين ..

وبنو اسرائيل لم يكونوا يؤمنون او يتقون او يوقنون !

وكانوا - كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرسل - قـد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم ، فقالوا : انهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا ! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسله ، لبيـان وحدة الجميع ، ولاعلان ان من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعاً ، وعادى الله سبحانه ، فعاداه الله . فهو من الكافرين :

«من كان عدواً لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »..

* * *

ثم يتجـه بالخطاب الى الرسول ﷺ يثبته على ما أنزل عليه من الحق ، وما آتاه من الآيات البينات ، مقرراً أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون . ويندد ببني اسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد. سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، او عهودهم مع رسول الله ﷺ كما يندد بنبذهم لكتاب الله الاخير الذي جاء مصدقاً لما معهم :

« ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بهـا إلا الفاسقون ؛ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ بـل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون ... » ..

لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني اسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلهـا الله .. انه الفسوق وانحراف الفطرة . فالطبيعة المستقيمة لا يسعها الا الايمان بتلـك

الآيات. وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم. فاذا كفر بها اليهود ـ او غيرهم ـ فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة ، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون .

ثم يلتفت الى المسلمين ـ والى الناس عامة ـ منددا بهؤلاء اليهود ، كاشفاً عن سمة من سماتهم الوبيئة .. انهم جماعة مفككة الأهواء ـ رغم تعصبها الذميم ـ فهم لا يجتمعون على رأي ، ولا يثبتون على عهد ، ولا يستمسكون بعروة . ومع انهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم ، يكرهون ان يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم ، الا انهم ـ مع هذا ـ لا يستمسكون بوحدة ، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض ، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تند منهم فرقة فتنقض ما أبرموا ، وتخرج على ما أجمعوا :

« أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ بل اكثرهم لا يؤمنون » ..

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل ، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد . وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ﷺ أول مقدمه الى المدينة ؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة . بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه ؛ وأول من عاب دينه ، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم ، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه ..

وبئس هي من خلة في اليهود ! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض ؛ يعلنها رسول الله ﷺ في قوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم » [1] .. يسعى بذمتهم أدناهم ، فلا يخيس أحد بعهده اذا عاهد ، ولا ينقض أحد عقده اذا أبرم . ولقد كتب ابو عبيدة رضي الله عنه وهو قائد لجيش عمر رضي الله عنه وهو الخليفة يقول : إن عبداً أمن أهل بلد بالعراق ، وسأله رأيه . فكتب اليه عمر : إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا .. فوفوا لهم وانصرفوا عنهم .. وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة . وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » ..

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه . فلقد كان ضمن

---

(١) رواه الامام احمد .

الميثـــاق الذي أخذه الله عليهم ، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه ، وأن ينصروه ويحترموه . فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، خاسوا بذلك العهد ، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم . يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً !

وفي الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهومـــاً ! ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب . هم الذين عرفوا الرسالات والرسل . هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور .. ومـاذا صنعوا ؟ إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ! والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجـــال تفكيرهم وحياتهم . ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن الى دائرة الحس ؛ ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة ، تصور هذا التصرف تصويراً بشماً زرياً ، ينضح بالكنود والجحود، ويتسم بالغلظة والحماقة ، ويفيض بسوء الأدب والقحة ؛ ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة . حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور ..

* * *

ثم ماذا ؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم ؟؟ ألعلهم قد لاذوا بمـا هو خير منه ؟ ألعلهم قد لجأوا الى حق لا شبهة فيه ؟ ألعلهم قد استمسكوا بكتابهم الذي جاء القرآن يصدقه ؟ كلا .. لا شيء من هذا كله .. إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند الى حقيقة ثابتة .

« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر. فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه – وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله – ويتعلمون مـا يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس مـــا شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبـــة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » ..

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم ؛ وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين عن عهد سليمان ، ومـا يضللون به الناس من دعاوي مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون : إنه كان ساحراً ، وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه .

والقرآن ينفي عن سليمان عليه السلام أنه كان ساحراً ، فيقول :

« وما كفر سليمان » .

فكأنه يعد السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان — عليـه السلام — ويثبته للشياطين :

« ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » ..

ثم ينفي أن السحر منزل من عنـد الله على الملكين : هاروت وماروت ، اللذين كان مقرهما بابل :

« وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » ..

ويبدو أنه كانت هنـاك قصة معروفة عنهما ، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس ، ويزعمان أن هـذا السحر أنزل عليهما ! فنفى القرآن هذه الفرية ايضاً . فرية تنزيل السحر على الملكين .

ثم يبين الحقيقة ، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة ، وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء اليهما ، طالباً منهما أن يعلماه السحر :

« وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » ..

ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفراً ؛ ويذكر هذا على لسان الملكين : هاروت وماروت .

وقد كان بعض الناس يصر على تعلم السحر منهما ، على الرغم من تحذيره وتبصيره . وعندئذ تحق الفتنة على بعض المفتونين :

« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » ..

وهو الأذى والشر الذي حذرهم منه الملكان ..

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الاسلامي الأساسية ؛ وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله :

« وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » ..

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها .. وهـذه قاعدة

كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً. وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام ، أنك اذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق . ولكن هـذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله . فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها . وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم – عليه السلام – وكذلك هذا السحر الذي يفرقون بـه بين المرء وزوجه ، ينشىء هذا الأثر بإذن الله . وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها .. وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار .. كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله ، فهو يعمـل بهذا الإذن ، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء ..

ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون ، وما يفرقون به بين المرء وزوجه .. إنـه شر عليهم هم أنفسهم لا خير :

« ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » ..

ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضراً خالصاً لا نفع فيه !

« ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق »..

لقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة ، فهو حين يختـاره ويشتريه يفقد كل رصيد له في الآخرة وكل نصيب ..

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة :

« ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » ..

« ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » ..

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل ، وعلى الذين يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان وملكه ، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله وراءهم ظهريا ، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم .

* * *

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر ، وعمـا يفرق بين المرء وزوجه ، مما كان أولئك اليهود يجرون خلفه ، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله ..

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد . لقد سمى بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقهـا !.. هذا

« التيلباثي » ـ التخاطر عن بعد ـ ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو انساناً على أبعاد وفواصل لا يصل اليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره ، فيتلقى عنه ، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد ؟

وهذا التنويم المغنطيسي ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحي الى الآخر ، وإذا احدهما يتلقى عن الآخر ، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح ؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله الى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها ، هو أن أعطاها أسماء ! ولكنه لم يقل قط : ما هي ؟ ولم يقل قط كيف تتم ؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم . إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها ؛ وإما لأنه لم يهتد الى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه . هذه الأحلام التنبؤية – وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها – كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول ، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد . كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل ؛ ثم يحدث ما توقعت على نحو من الانحاء !

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري ، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد الى وسيلة يجرب بها هذه القوى .

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة ، والجري وراء كل أسطورة .. انما الاسلم والأحوط أن يقف العقل الانساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً .. لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق ، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه؛ او يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده ، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه ..

السحر من قبيل هذه الامور . وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الامور . وقد تكون صورة من صوره : القدرة على الإيحاء والتأثير ، إما في الحواس والأفكار ، وإما في الأشياء والأجسام .. وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له: « فخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » – ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه ، وبين الصديق وصديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثرات . وإن كانت الوسائل والآثار ، والأسباب والمسببات ،

لا تقع كلها إلا بإذن الله ، على النحو الذي أسلفنا .

أما من همـــا الملكان : هاروت وماروت ؟ ومتى كانا ببابل ؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود . بدليل أنهم لم يكذبوا هـذه الاشارة ولم يعترضوا عليها . وقـد وردت في القرآن الكريم اشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين بها ؛ وكان في ذلك الاجمال كفاية لأداء الغرض ، ولم يكن هنالك ما يدعو الى تفصيل أكثر . لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود .

ولا أحب أن نجري نحن – في ظلال القرآن – خلف الاساطير الكثيرة التي وردت حول قصة الملكين . فليست هنالك رواية واحدة محققة يوثق بها .

ولقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتها وإدراكها في كل طور من أطوارها . فاذا جاء الاختبار في صورة ملكين – او في صورة رجلين طيبين كالملائكة – فليس هذا غريباً ولا شاذاً بالقياس الى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة ، التي مرت بهـا البشرية ، وهي تحبو ، وهي تخطو ، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة في غياهب الليل البهيم !.

والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات تغني عن السعي وراء المتشابه فيهـا بالقياس الينا بعد ذلك الزمن المديـد . وحسبنا أن نعلم منهـا ضلال بني إسرائيل في جريهم وراء الأساطير ، ونبذهم كتاب الله المستيقن ، وأن نعرف أن السحر من عمـل الشيطان ؛ وأنه من ثم كفر يدان به الانسان ، ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا : رَاعِنَا ، وَقُولُوا : ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦ ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [١٠٧] ؟ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ [١٠٨] وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ، فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٠٩] وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللهِ ، إِنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [١١٠] .

« وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١١١] بَلَىٰ ! مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ ـ وَهُوَ مُحْسِنٌ ـ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [١١٢] وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ : لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ : لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ـ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ـ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [١١٣] .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ؟ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١١٤] وَلِلهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ ، إِنَّ ٱللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [١١٥] .

« وَقَالُوا : ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ! بَلْ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ : لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ . كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨ .

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ : إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ١٢١ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ١٢٣ »..

يمضي هـــذا الدرس في كشف دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين ؛ وتحذير الجماعة المسلمة من ألاعيبهم وحيلهم ، ومـا تكنه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر ، وما يبيتون لهم من الكيد والضر ؛ ونهي الجماعة المسلمة عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب في قول أو فعـل ؛ ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الدفينة التي تكمن وراء أقوال اليهود وأفعالهم ، وكيدهم ودسهم ، وألاعيبهم وفتنهم ، التي يطلقونها في الصف الإسلامي .

ويبدو أن اليهود كانوا يتخذون من نسخ بعض الأوامر والتكاليف، وتغييرها وفق مقتضيات النشأة الإسلامية الجديدة، والظروف والملابسات التي تحيط بالجماعة المسلمة.. يبدو أنهم كانوا يتخذون من هذا ذريعة للتشكيك في مصدر هذه الأوامر والتكاليف؛ ويقولون للمسلمين : لو كانت من عند الله مـــا نسخت ولا صدر أمر جديد يلغي أو يعدل أمراً سابقاً .

واشتدت هذه الحمـلة عند تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة بعد ستة عشر شهراً من الهجرة . وكان النبي ﷺ قـــد اتجه بالصلاة – عقب الهجرة – الى بيت المقدس – قبلة اليهود ومصلاهم – فاتخذ اليهود من هذا التوجه حجة على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هي القبلة ؛ ممـا جعل الرسول ﷺ يرغب ولا يصرح في التحول عن بيت المقدس الى الكعبة ، بيت الله الحرم . وظلت هذه الرغبة تعتمل في نفسه حتى استجاب له ربه فوجهه الى القبلة التي يرضاها – كما سيجيء في سياق السورة – ونظراً لما يحمله هذا التحول من دحض لحجة بني إسرائيل فقد عز عليهم أن يفقدوا مثل هذه الحجة ، فشنوها حملة دعاية ماكرة في وسط المسلمين ، بالتشكيك في مصدر الأوامر التي يكلفهم بها رسول الله ﷺ وفي صحة تلقيه عن الوحي .. أي إنهم وجهوا المعول الى أساس العقيدة في نفوس المسلمين ! ثم قـالوا لهم : إن كان التوجه الى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة . وإن كان صحيحاً ففيم التحول عنه ؟ أي إنهم وجهوا المعول الى أساس الثقة في نفوس المسلمين برصيدهم من ثواب الله، وقبل كل شيء في حكمة القيادة النبوية !

ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة في بعض نفوس المسلمين . فأخـذوا يسألون الرسول ﷺ في قلق وزعزعة ؛ ويطلبون البراهين والأدلة ، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة الى القيادة ، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة . فنزل القرآن يبين لهم أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمـة الله الذي يختار الأحسن لعباده ؛ ويعلم ما يصلح لهم في كل موقف . وينبههم في الوقت ذاتـــه الى أن هدف اليهود هو ردهم كفاراً بعـــد إيمانهم ؛ حسداً من عند أنفسهم على اختيار الله لهم ، واختصاصهم برحمته وفضله ، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم ، وانتدابهم لهـــذا الأمر العظيم . ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غرض دفين ! ويفند دعواهم الكاذبة في أن الجنة من حقهم وحدهم . ويقص عليهم التهم المتبادلة بـين فريقي أهل الكتاب

إذ يقول اليهود : ليست النصارى على شيء . وتقول النصارى ليست اليهود على شيء؛ وكذلك يقول المشركون عن الجميع !

ثم يفضح نيتهم التي يخفونها من وراء قصة القبلة ؛ وهي منع الاتجاه الى الكعبة بيت الله ومسجده الأول ، ويعده منعاً لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعياً في خرابها .

ويمضي السياق في هذا الدرس على هذا النحو ، حتى ينتهي الى أن يضع المسلمين وجهاً لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى .. إنه تحويل المسلمين من دينهم الى دين أهل الكتاب . ولن يرضوا عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم، وإلا فهي الحرب والكيد والدس الى النهاية ! وهذه هي حقيقة المعركة التي تكمن وراء الأباطيل والأضاليل ، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة !!!

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا : راعنا . وقولوا : انظرنا ، واسمعوا وللكافرين عذاب أليم . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل . ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ؛ إن الله على كل شيء قدير . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعملون بصير » ..

يتجه الخطاب في مطلع هذا الدرس الى « الذين آمنوا » يناديهم بالصفة التي تميزهم والتي تربطهم بربهم ونبيهم ، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية .

وبهذه الصفة ينهاهم أن يقولوا للنبي ﷺ : « راعنا » — من الرعاية والنظر — وأن يقولوا بدلاً منها مرادفها في اللغة العربية : « انظرنا » .. ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة ، ويحذرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا : راعنا وقولوا انظرنا . واسمعوا . وللكافرين عذاب أليم » ..

وتذكر الروايات أن السبب في ذلك النهي عن كلمة « راعنا » .. أن سفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ ، وهم يوجهونه للنبي ﷺ حتى يؤدي معنى آخر مشتقاً من الرعونة . فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي ﷺ مواجهة ، فيحتالون على سبه – صلوات الله وسلامه عليه – عن هذا الطريق الملتوي ، الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء ! ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة ، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى ، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته . كي يفوتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه !

واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم ، كما يشي بسوء الأدب ، وخسة الوسيلة ، وانحطاط السلوك . والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة ، ودفاعه – سبحانه – عن أوليائه ، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين .

ثم يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء ، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد ، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل . ليحذروا أعداءهم ، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الايمان ، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه :

« ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم . والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » ..

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر .. وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية ؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير . وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين . هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن ، ويحبوهم بهذه النعمة ، ويعهد اليهم بأمانة العقيدة في الارض ، وهي الأمانة الكبرى في الوجود .

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل – عليه السلام – إذ كان ينزل بالوحي على الرسول ﷺ :

« والله يختص برحمته من يشاء » ..

فالله أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فإذا اختص بها محمداً ﷺ والمؤمنين به ، فقد علم – سبحانه – أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص .

« والله ذو الفضل العظيم » ..

وليس أعظم من نعمة النبوة والرساله؛ وليس أعظم من نعمة الايمان والدعوة اليه. وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين امنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل . وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد .. وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها – ويقودها – اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين ، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين !

وكانت الحملة – كما أسلفنا – تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف . وبخاصة عند تحويل القبلة الى الكعبة . الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ..

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة – كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها – أم كانت مناسبة اخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة ، وأحوالها المتطورة. أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة .. سواء كانت هذه أم هذه أم هذه، أم هي جميعاً المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة .. فإن القرآن يبين هنا بياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل ؛ وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارتها يهود ، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب .

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال – في فترة الرسالة – هو لصالح البشرية ، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها . والله خالق الناس ، ومرسل الرسل ، ومنزّل الآيات ، هو الذي يقدر هذا . فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان – سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكماً من الأحكام ، او آية بمعنى علامة خارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل – فإنه يأتي بخير منها او مثلها ! ولا يعجزه شيء، وهو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض..

ومن ثم تجيء هذه التعقيبات :

« ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ؟ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ..

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير ، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير .. ولعل هذا كان بسبب الخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية ؛ وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة ؛ وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ﷺ لا تتفق مع الثقة واليقين . يدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار :

« أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » ..

فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنتهم ، وطلبهم للبراهين والخوارق ، وإعناتهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر او أبلغهم بتكليف، على نحو ما حكى السياق عنهم في مواضع كثيرة ..

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق ، وهي الضلال ، واستبدال الكفر بالإيمان ، وهي النهاية التي صار اليها بنو إسرائيل . كما أنها هي النهاية التي يتمنى اليهود لو قادوا اليها المسلمين !

« ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » ..

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس .. الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي اليه الآخرون .. لماذا ؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم . ولكنها لأنها تعلم !

« حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » ..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الاسلام والمسلمين ، وما زالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال . وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه ، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم ؛ وردهم بعد ذلك الى الكفر الذي كانوا فيه ، والذي أنقذهم الله منه بالايمان ؛ وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجلّ النعمة التي تحسدهم عليها يهود !

وهنا – في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة ، وتنكشف فيهـــا النية السيئة والحسد اللئيم – هنا يدعو القرآن المؤمنين الى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد ، والشر بالشر ، ويدعوهم الى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره ، وقتما يريد :

« فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره . إن الله على كل شيء قدير » ..

وامضوا في طريقكم التي اختارها الله لكم،واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم:

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عنــد الله . إن الله بما تعملون بصير » ..

وهكذا .. يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر ، ومكمن الدسيسة ؛ ويعبىء مشاعر المسلمين تجـاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم .. ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها الى جناب الله ، ينظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه .. والى أن يحين هذا الأمر يدعوهم الى العفو والسماحة ، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة . ويدعهـــا طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة ..

* * *

ثم يمضي في تفنيد دعاوى أهل الكتاب عامة : اليهود والنصارى ، وقولهم : إنهم هم المهتدون وحدهم ! وإن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم ! على حين يجبه كل فريق منهم الآخر بأنهم ليسوا على شيء ! ويقرر في ثنايا عرض هذه الدعاوى العريضة حقيقة الأمر ، ويقول كلمة الفصل في العمل والجزاء :

« وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى . تلك أمانيهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى! من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء – وهم يتلون الكتاب – كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ..

والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود ؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود . ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء . ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء ! ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعاً !

« وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى » ..

وهذه حكاية قوليهم مزدوجة . وإلا فقد كانت اليهود تقول : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً – اي من يهود – وكانت النصارى تقول : لن يدخل الجنة الا من كان من النصارى ..

وهذه القولة كتلك ، لا تستند الى دليل ، سوى الادعاء العريض ! ومن ثم يلقن الله رسوله ﷺ أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل :

« قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ..

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الاسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد . إنما هو الاسلام والاحسان ، لا الاسم والعنوان :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب رداً على قولهم : « لن تمسنا النار إلا اياماً معدودة » .. فقال : « بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » ..

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة . طرفيها المتقابلين : « من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » .. فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة ، في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة .. و « من أسلم وجهه لله وهو محسن » .. فأخلص ذاته كلها لله ، ووجه مشاعره كلها اليه ، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة .. « من أسلم وجهه لله » .. هنا تبرز سمة الاسلام الاولى : إسلام الوجه – والوجه رمز على الكل – ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم . الاستسلام المعنوي والتسليم العملي . ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام : « وهو محسن » .. فسمة الاسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والعمل ، بين الايمان القلبي والاحسان العملي .. بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها ؛ وبذلك تتوحد الشخصية الانسانية بكل نشاطها واتجاهاتها ؛ وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله :

« فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

الأجر المضمون لا يضيع « عند ربهم » .. والأمن الموفور لا يساوره خوف ، والسرور الفائض لا يمسه حزن .. وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس

جميعاً . فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة !

ولقد كانوا — يهوداً ونصارى — يطلقون تلك الدعوى العريضة ، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء ؛ وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها :

« وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء — وهم يتلون الكتاب — كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

والذين لا يعلمون هم الاميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب ؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالاتهام ، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيراً على خرافات العرب وأساطيرهم في الشرك ونسبة الابناء — او البنات — لله سبحانه ؛ فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون: إنهم ليسوا على شيء !

والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض ؛ عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة ! ثم يدع أمر الخلاف بينهم الى الله .

« فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

فهو الحكم العدل ، واليه تصير الامور . . وهذه الاحالة الى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق ، ولا يعتمدون على دليل ، بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة ، وأنهم وحدهم المهديون !

* * *

ثم يعود الى ترذيل محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة الأوامر والتبليغات النبوية — وبخاصة ما يتعلق منها بتحويل القبلة — ويعدها سعياً في منع ذكر الله في مساجده، وعملا على خرابها :

« ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم » . .

وأقرب ما يتوارد الى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة ؛ وسعى اليهود لصد المسلمين عن التوجه الى الكعبة . . أول بيت وضع للناس وأول

قبلة .. وهناك روايات متعددة عن أسباب نزولها غير هذا الوجه ..

وعلى أية حال فإن إطلاق النص يوحي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، والسعي في خرابها . كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة ، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها . وهو قوله :

« أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » ..

أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن ، إلا أن يلجأوا الى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذي حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله ﷺ يوم الفتح : من دخل المسجد الحرام فهو آمن .. فلجأ اليه المستأمنون من جبابرة قريش ، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله ﷺ ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام !) .. ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة :

« لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم » ..

وهناك تفسير آخر لقوله : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » .. أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا في خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته . فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله ، المناسب لمهابته وجلاله العظيم .. وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام .

والذي يجعلنا نرجح أن الآيتين نزلتا في مناسبة تحويل القبلة ، هو الآية الثانية منهما:

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » .

فهي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم أن صلاة المسلمين إذن الى بيت المقدس كانت باطلة ، وضائعة ولا حساب لها عند الله ! والآية ترد عليهم هذا الزعم ، وهي تقرر أن كل اتجاه قبلة ، فثم وجه الله حيثما توجه اليه عابد . وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة ، لا أن وجه الله — سبحانه — في جهة دون جهة . والله لا يضيق على عباده ، ولا ينقصهم ثوابهم ، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم . وفي الأمر سعة . والنية لله « إن الله واسع عليم » ...

* * *

بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية ، وانحرافهم عن التوحيد الذي هو قاعدة دين الله ، وأساس التصور الصحيح في كل رسالة . ويقرن تصورهم

المنحرف الى تصورات الجاهلية عن ذات الله – سبحانه – وصفاته . ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب ، ويصحح للجميع انحرافهم الى الشرك ، ويوضح لهم قاعدة التصور الايماني الصحيح :

« وقالوا : اتخذ الله ولداً . سبحانه ! بل له ما في السماوات والارض ، كل له قانتون . بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون. وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون » ..

وهذه المقولة الفاسدة : « اتخذ الله ولداً » .. ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح ، فهي كذلك مقولة اليهود في العزير . كما كانت مقولة المشركين في الملائكة . ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات ، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاثة التي كانت تناهض الاسلام يومئذ في الجزيرة – ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماماً ، ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ، والشيوعية العالمية ، وهي أشد كفراً من المشركين في ذلك الحين! – ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون ؛ وها هم أولاء يستوون مع المشركين !

وقبل أن يمضي الى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله – سبحانه – يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور ، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً :

« سبحانه ! بل له ما في السماوات والأرض ، كلٌ له قانتون . بديع السماوات والأرض واذا قضى أمراً فإنما يقول له كن . فيكون » ..

هنا نصل الى فكرة الاسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه ، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه ، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعاً .. لقد صدر الكون عن خالقه ، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة : « كن، فيكون » .. فتوجه الإرادة الى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن ، على الصورة المقدرة له ، بدون وسيط من قوة او مادة .. أما كيف تتصل هذه الارادة التي لا نعرف كنهها ، بذلك الكائن المراد صدوره عنها ، فذلك هو السر الذي لم يكشف للادراك البشري عنه ، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه . وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها .. وبقدر ما وهب الله للانسان من القدرة على كشف قوانين

الكون التي تفيده في مهمته ، وسخر له الانتفاع بها ، بقدر مـــا زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى .. ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه ، وهي تحاول كشف هذه الأسرار ؛ وتفترض فروضاً تنبع من الادراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال ، ولم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه والارتياد . فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها . مضحكة الى حد يحيّر الانسان : كيف يصدر هــــذا عن « فيلسوف » ! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالادراك البشري عن طبيعة خلقته ، وأن يتجاوزوا بــه نطاقه المقدور له ! فلم ينتهوا الى شيء يطمأن اليـــه ؛ بل لم يصلوا الى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الاسلامي ويعيش في ظله . وعصم الاسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل ، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة ، الخاطئة المنهج ابتداء . فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الاغريقية — على وجه خاص — أن يتطاولوا الى ذلك المرتقى ، باءوا بالتعقيد والتخليط ، كما بـــاء أساتذتهم الاغريق ! ودسوا في التفكير الاسلامي ما ليس من طبيعته ، وفي التصور الاسلامي مـــا ليس من حقيقته .. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجـــاله ، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه ..

والنظرية الاسلامية : أن الخلق غير الخالق . وأن الخالق ليس كمثله شيء .. ومن هنا تنتفي من التصور الاسلامي فكرة : « وحدة الوجود » على مـــا يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح — أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة — أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق ، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده .. او على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس .. والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر : وحدة صدوره عن الارادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذي يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه الى ربه في عبادة وخشوع :

« بل له ما في السماوات والأرض كلٌ له قانتون » ..

فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولدا.. فالكل من خلقه بدرجة واحدة ، وبأداة واحدة :

« بديع السماوات والأرض . واذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون » ..

وتوجه الارادة يتم بكيفية غير معلومة للادراك البشري ، لأنها فوق طاقة الادراك

البشري . فمن العبث إنفاق الطاقة في اكتناه هذا السر ، والخبط في التيه بلا دليل !

وإذ ينتهي من عرض مقولة أهل الكتاب في ادعاء الولد لله -سبحانه- وتصحيح هذه المقولة وردّها ، يتبعها بمقولة المشركين فيها من سوء التصور مـا يتسق مع سوء التصور عن أهل الكتاب :

« وقـال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله او تأتينا آية ! كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » ..

والذين لا يعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين ، إذ لم يكن لديهم عـلم من كتاب . وكثيراً مـا تحدوا النبي ﷺ أن يكلمهم الله او أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية .. وذكر هذه المقولة هنـا مقصود لبيان أن الذين من قبلهم — وهم اليهود وغيرهم — طلبوا مثل هذا من انبيائهم . فلقد طلب قوم موسى ان يروا الله جهرة، وطلبوا وتعنتوا في طلب الخوارق المعجزة.فبين هؤلاء وهؤلاء شبه في الطبيعة، وشبه في التصور ، وشبه في الضلال :

« تشابهت قلوبهم » ..

فلا فضل لليهود على المشركين . وهم متشابهو القلوب في التصور والعنت والضلال!

« قد بينا الآيات لقوم يوقنون » ..

والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه ، ويجد فيها طمأنينة ضميره . فالآيات لا تنشىء اليقين ، إنمـا اليقين هو الذي يدرك دلالتهـا ويطمئن الى حقيقتها . ويهيء القلوب للتلقي الواصل الصحيح .

* * *

وإذ انتهت مقولاتهم، وفندت اباطيلهم،وكشفت الدوافع الكامنة وراء اضاليلهم، يتجه الخطاب الى رسول الله ﷺ يبين له وظيفته ، ويحـدد له تبعاته ، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى ، وطبيعة الخلاف الذي لا حل له إلا بثمن لا يملكه ولا يستطيعه ! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه ؛ وحاشاه !

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهـدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعـد الذي جاءك من العلم مـالك من الله من ولي ولا نصير . الذين

آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . اولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » ..

« إنا أرسالناك بالحق » .. وهي كلمة فيها من التثبيت مـا يقضي على شبهات المضللين ، ومحـاولات الكائدين ، وتلبيس الملفقين . وفي جرسها صرامة توحي بالجزم واليقين .

« بشيراً ونذيراً » .. وظيفتك البلاغ والأداء ، تبشر الطائعين وتنـذر العصاة ، فينتهي دورك ..

« ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .. الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم ، وتبعتهم على أنفسهم .

وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك ، ويكيدون لك ، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك إلا أن تحيد عن هذا الأمر ، وإلا أن تترك هذا الحق ، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين ، تتخلى عنه الى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيـانه منذ قليل :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ..

فتلك هي العلة الأصيلة . ليس الذي ينقصهم هو البرهـان ؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق ، وأن الذي جاءك من ربك الحق . ولو قدمت إليهم ما قدمت ، ولو توددت إليهم ما توددت .. لن يرضيهم من هذا كله شيء ، إلا ان تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق .

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان .. إنهـا هي العقيدة . هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة .. إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الاسلامي وهذين المعسكرين اللذين قـد يتخاصمان فيما بينهما ؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الاسلام والمسلمين !

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها . ولكن المعسكرين العريقين في العـداوة للاسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلامـاً شتى ، في خبث ومكر وتورية . إنهم قـد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة .. لم يعلنوها حرباً

باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها . إنما أعلنوها باسم الأرض ، والاقتصاد ، والسياسة ، والمراكز العسكرية .. وما إليها . وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لهـا ! ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها .. بينما هم في قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلا ، فأدمتهم جميعاً !!!

إنها معركة العقيدة . إنها ليست معركة الأرض . ولا الغلة . ولا المراكز العسكرية . ولا هذه الرايات المزيفة كلها . إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها ، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا . ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته ، وهو – سبحانه – أصدق القائلين :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ..

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه . وما سواه فمرفوض ومردود !

ولكن الأمر الحازم ، والتوجيه الصادق :

« قل : إن هدى الله هو الهدى » ..

على سبيل القصر والحصر . هدى الله هو الهدى . وما عداه ليس بهدى . فـلا براح منه ، ولا فكاك عنه ، ولا محاولة فيه ، ولا ترضية على حسابه ، ولا مساومة في شيء منـه قليل أو كثير . ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم ، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق.

« ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ».

بهذا التهديد المفزع ، وبهذا القطع الجازم ، وبهـذا الوعيد الرعيب .. ولمن ؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم !

إنهـا الأهواء .. إن أنت ملت عن الهدى .. هدى الله الذي لا هدى سواه .. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف ؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل .

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوتـه ، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك ؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون ، لا أنت ولا المؤمنون !

« الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » ..

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان ، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود ؟

* * *

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب الى بني إسرائيل . كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير ، بعد هذه المجابهة وهذا الجدل الطويل ، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم ، وبعد الالتفات عنهم الى خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين .. هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخير ، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة .. أمانة العقيدة .. التي نيطت بهم من قديم .. وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة .. يا بني إسرائيل ..

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون » ..

« وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ : وَمِن ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ ١٢٤ .

« وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَٱتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ : أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ، وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ ـ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ـ قَالَ : وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦ .

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ . رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِن ذُرِّيَّتِنَا

أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩ .

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣ .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٤ .

« وَقَالُوا : كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥ قُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٦ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ

ٱلْعَلِيمُ ١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ١٣٨ .

« قُلْ : أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ١٣٩ ؟ أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ؟ قُلْ : أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللَّهِ ؟ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤١ » .

في القطاعات التي مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب ، دائراً كله حول سيرة بني اسرائيل ، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ، ومن مواثيقهم وعهودهم ، ابتداء من عهد موسى – عليه السلام – الى عهد محمد ﷺ أكثره عن اليهود ، وأقله عن النصارى ، مع إشارات الى المشركين ، عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب ، او يلتقي معهم فيها أهل الكتاب .

فالآن يرجع السياق الى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى.. يرجع الى ابراهيم.. وقصة ابراهيم – على النحو الذي تساق به في موضعها هذا – تؤدي دورها في السياق ، كما أنها تؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف .

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم الى ابراهيم عن طريق اسحاق – عليهما السلام – ويعتزون بنسبتهم اليه ، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده . ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أياً كان ما يعملون !

وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك الى ابراهيم عن طريق اسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبتها اليه ؛ وتستمد منها القوامة على البيت ، وعمارة المسجد الحرام ؛

وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

وقد وصل السياق فيما مضى الى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا او نصارى » .. وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهودا او نصارى .. ليهتدوا .. « وقالوا : كونوا هودا او نصارى تهتدوا » .. كذلك وصل الى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها . وقلنا هناك : إنها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة ، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصف الاسلامي بهذه المناسبة .

فالآن يجيء الحديث عن ابراهيم واسماعيل واسحاق ؛ والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره .. في جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات . ولتقرير قضية القبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون .. كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم — وهي التوحيد الخالص — وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء ؛ وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب — وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه — وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين . ولتقرير وحدة دين الله ، واطراده على أيدي رسله جميعاً ، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس . وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء . وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة . فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب ! فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر !!

هذه الحقائق التي تمثل شطراً من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي ، يجليها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب ؛ وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع .. يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم — عليه السلام — منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه ، وتنصيبه للناس إماماً .. الى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد ﷺ استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام ؛ فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً ، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة . سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز السياق . أن الإسلام – بمعنى إسلام الوجه لله وحده – كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة .. هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها الى موسى وعيسى .. ثم آلت أخيراً الى وراثة إبراهيم من المسلمين.. فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها . ومن فسق عنها ، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

عندئذ تسقط كل دعاوي اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة .. وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوي قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم قد فقدوا حقهم في ورثة باني هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته .. ثم تسقط كل دعاوي اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون . فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم ..

كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب ؛ حافل بالإشارات الموحية ، والوقفات العميقة الدلالة ، والإيضاح القوي التأثير . فلنأخذ في استعراض هذا النسق العالي في ظل هذا البيان المنير :

* * *

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إني جاعلك للناس إماماً . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » ..

يقول للنبي ﷺ اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف فأتمهن وفاء وقضاء .. وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة : « وإبراهيم الذي وفى » .. وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم . مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل . والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفى ولا يستقيم !

عندئذ استحق ابراهيم تلك البشري . أو تلك الثقة :

« قال : إني جاعلك للناس إماماً » ..

إماماً يتخذونه قدوة ، ويقودهم الى الله ، ويقدمهم الى الخير ، ويكونون له تبعاً، وتكون له فيهم قيادة .

عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر : الرغبـــة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد . ذلك الشعور الفطري العميق ، الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم ، ويكمل اللاحق مـا بدأه السابق ، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق.. ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله؛ وهو مركوز في اصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى . وعلى أساسه يقرر الاسلام شريعة الميراث ، تلبية لتلك الفطرة وتنشيطاً لها لتعمل ، ولتبذل أقصى ما في طوقهـــا من جهد . وما المحاولات التي تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلا محاولة لتحطيم الفطرة البشرية في أساسهـا ؛ وإلا تكلف وقصر نظر واعتساف في معالجـــة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة . وكل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقى . وهنـاك غيره من العلاج الذي يصلح الانحراف ولا يحطم الفطرة . ولكنـــه يحتاج الى هدى وإيمان ، والى خبرة بالنفس البشرية أعمق ، وفكرة عن تكوينهـا أدق ، والى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التي تنزع الى التحطيم والتنكيل ، أكثر مما ترمي الى البنـاء والإصلاح :

« قال : ومن ذريتي ؟ » ..

وجاءه الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التي أسلفنا .. إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور ، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب .. فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هي وشيجة دين وعقيدة. ودعوى القرابـــة والدم والجنس والقوم إن هي إلا دعوى الجاهلية ، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح :

« قال : لا ينال عهدي الظالمين » ..

والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغي..والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة : إمامـة الرسالة ، وإمامة الخلافة ، وإمامـــة الصلاة .. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة . فالعـــدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها . ومن ظلم – اي لون من الظلم – فقد جرد نفسه من حق الامامة وأسقط حقه فيها ، بكل معنى من معانيها .

وهذا الذي قيل لإبراهيم - عليه السلام - وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض .. قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم ابراهيم ..

وهذا الذي قيل لإبراهيم - عليه السلام - وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون انفسهم المسلمين اليوم . بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم .. ودعواهم الاسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله .

إن التصور الاسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولا رحم اذا انبتت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل .. وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوجة إذا انقطع بينهما حبل العقيدة . فعرب الشرك شيء وعرب الاسلام شيء آخر . ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . والذين آمنوا من أهل الكتاب شيء ، والذين انحرفوا عن دين ابراهيم وموسى وعيسى شيء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة .. إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفاداً .. إنما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة . وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين .. إنما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم .. وهذا هو التصور الإيماني ، الذي ينبثق من خلال هذا البيان الرباني ، في كتاب الله الكريم ..

* * *

« وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وعهدنا الى ابراهيم وإسماعيل أن طهراً بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود » ..

هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره .. لقد أراده الله مثابة يثوب اليها الناس جميعاً ، فلا يروعهم أحد ؛ بل يأمنون فيه على أروحهم وأموالهم. فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام.

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقـام ابراهيم مصلى — ومقام ابراهيم يشير هنـا الى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره — فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً . وهو أولى قبلة يتوجه اليهـا المسلمون ، ورثه ابراهيم بالايمـان والتوحيد الصحيح ، بما أنه بيت الله،لا بيت أحد من الناس. وقد عهد الله — صاحب البيت — الى عبدين من عباده صالحين ان يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود — أي للحجاج الوافدين عليه ، وأهله العاكفين فيه ، والذين يصلـّون فيه ويركعون ويسجدون . فحتى ابراهيم واسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما ، فيورث بالنسب عنهما ، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما ، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين .

* * *

« وإذ قال ابراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات .. من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير » ..

ومرة أخرى يؤكد دعـاء ابراهيم صفة الأمن للبيت . ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير .. إن ابراهيم قـد أفاد من عظة ربه له في الأولى . لقـد وعى منذ أن قال له ربه : « لا ينال عهدي الظالمين » .. وعى هذا الدرس .. فهو هنا ، في دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات ، يحترس ويستثني ويحدد من يعني : « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ..

إنه ابراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم ، يتأدب بالأدب الذي علمه ربه ، فيراعيه في طلبه ودعائه.. وعندئذ يجيئه رد ربه مكملا ومبيناً عن الشطر الآخر الذي سكت عنه . شطر الذين لا يؤمنون ، ومصيرهم الأليم :

« قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم اضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير » ..

* * *

ثم يرسم مشهد تنفيذ ابراهيم واسماعيل للأمر الذي تلقيـاه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود .. يرسمـه مشهوداً كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن :

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنـا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمـة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا

وتب علينـــا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » ..

إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر .. حكاية تحكي :

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » ..

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر ، اذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينـا اياهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيـال . إنهما أمامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنـا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .. ربنا ... »

فنغمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء .. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة .. وتلك احـدى خصائص التعبير القرآني الجميل . رد المشهد الغائب الذاهب ، حاضراً يسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة .. إنها خصيصة « التصوير الفني » بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد .

وماذا في ثنـايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود . وهو الأدب والايمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمـه لورثة الأنبياء ، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الايحاء :

« ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم » ..

إنه طلب القبول .. هذه هي الغاية .. فهو عمل خالص لله . الاتجاه به في قنوت وخشوع الى الله . والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضى والقبول .. والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليم بما وراءه من النية والشعور .

« ربنـــا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمـة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » ..

إنه رجاء العون من ربهما في الهداية الى الاسلام ؛ والشعور بأن قلوبهما بين أصبعين من أصابع الرحمن ؛ وأن الهدى هداه ، وأنـــه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

ثم هو طابع الأمة المسلمة .. التضامن .. تضامن الأجيـال في العقيدة : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » .. وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . إن أمر

العقيدة هي شغله الشاغل ، وهو همــه الأول . وشعور ابراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما .. نعمة الايمـان .. تدفعهما الى الحرص عليها في عقبهما ، والى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هــذا الانعام الذي لا يكافئه إنعام .. لقـد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الايمان ؛ وأن يريهم جميعاً مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم .

ثم ألا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة :

« ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمـة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » ..

وكانت الاستجابة لدعوة ابراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون . بعثـة رسول من ذرية ابراهيم وإسماعيل ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس .. إن الدعوة المستجابة تستجاب، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته . غير أن النـاس يستعجلون ! وغير الواصلين يملون ويقنطون !

وبعد فإن لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف .. إن ابراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله اليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، وهمـا أصل سادني البيت من قريش .. انهما يقولان باللسان الصريح : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » .. « ومن ذريتنا أمـة مسلمـة لك » .. كما يقولان باللسان الصريح : « ربنـا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .. وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة ابراهيم ، ووراثتها للبيت الحرام سواء . وإذن فهو بيتهـا الذي تتجه اليه ، وهي اولى به من المشركين . وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحيين !

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعي دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش .. فليسمع : ان ابراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة ، قال له ربه : « لا ينـال عهدي الظالمين » .. ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : « من آمن بالله واليوم الآخر » .. وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما في بناء البيت وتطهيره

كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمــة مسلمة ، وأن يبعث في اهل بيته رسولاً منهم .. فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمــد ابن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله .

* * *

وعند هذا المقطع من قصة ابراهيم ، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه ، ليواجــه بهما الذين ينازعون الأمــــة المسلمة الإمامة ؛ وينازعون الرسول ﷺ النبوة والرسالة ؛ ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة :

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين .. ووصى بها ابراهيم بنيــه ويعقوب : يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ..

هذه هي ملة ابراهيم .. الاسلام الخالص الصريح .. لا يرغب عنهــا وينصرف الا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها .. ابراهيم الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً ، وشهد له في الآخرة بالصلاح .. اصطفاه « إذ قال له ربــه أسلم » .. فلم يتلكأ ، ولم يرتب ، ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقي الأمر .

« قال : أسلمت لرب العالمين » ..

هذه هي ملة ابراهيم .. الاسلام الخالص الصريح .. ولم يكتف ابراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه ، وجعلها وصيته في ذريته، ووصى بها ابراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو اسرائيل الذي ينتسبون اليــــه ، ثم لا يلبون وصيته ، ووصية جده وجدهم ابراهيم !

ولقد ذكر كل من ابراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم :

« يا بني إن الله اصطفى لكم الدين » ..

فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل مــا توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

« فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ..

وها هي ذي الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم الى الإسلام ، وهو

ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم إبراهيم ..

* * *

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه.. الوصية التي كررها يعقوب في آخر لحظة من لحظات حياته ؛ والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته ، فليسمعها بنو إسرائيل :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون».

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الإيحاء ، عميق التأثير .. ميت يحتضر . فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ مـا هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر ، يسجل فيـه كل التفصيلات ؟ .. إنها العقيدة .. هي التركة . وهي الذخر . وهي القضية الكبرى ، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته:

« ما تعبدون من بعدي ؟ » ..

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله . وهـذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها . وهذه هي الأمانة والذخر والتراث ..

« قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون » ..

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه .

وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبنـاء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصاً صريحاً على أنهم « مسلمون » .

والقرآن يسأل بـني إسرائيل : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ؟ » .. فهذا هو الذي كان ، يشهد به الله ، ويقرره ، ويقطع بـه كل حجة لهم في التمويه والتضليل ؛ ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم اسرائيل !

* * *

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التي خلت، والجيل الذي كانت تواجهه الدعوة .. حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين :

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ..

فلكل حساب ؛ ولكل طريق ؛ ولكل عنوان ؛ ولكل صفة .. أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتداداً لتلك الأسلاف . هؤلاء حزب وأولئك حزب. لهؤلاء راية ولأولئك راية.. والتصور الإيماني في هذا غير التصور الجاهلي .. فالتصور الجاهلي لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأن الصلة هي صلة الجنس والنسب . أما التصور الايماني فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ؛ فليسا أمة واحدة ، وليس بينهما صلة ولا قرابة .. انهما أمتان مختلفتان في ميزان الله ، فهما مختلفتان في ميزان المؤمنين . ان الأمة في التصور الايماني هي الجماعة التي تنتسب الى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ؛ وليست هي الجماعة التي تنتسب الى جنس واحد او ارض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالانسان ، الذي يستمد انسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الارضية !

* * *

في ظل هذا البيان التاريخي الحاسم ، لقصة العهد مع ابراهيم ؛ وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين ؛ ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ؛ يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين ، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم ، فيبدو هذا كله ضعيفاً شاحباً ، كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل : كذلك تبدو العقيدة الاسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنتون :

« وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل: بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم . صبغة الله ومن

أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون . قل : أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ » أم تقولون: « إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً او نصارى ؟ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عما تعملون » ..

وإنما كان قول اليهود : كونوا يهوداً تهتدوا ؛ وكان قول النصارى: كونوا نصارى تهتدوا . فجمع الله قوليهم ليوجه نبيه ﷺ أن يواجههم جميعاً بكلمة واحدة :

« قل : بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » ..

قل : بل نرجع جميعاً ، نحن وأنتم ، الى ملة ابراهيم ، أبينا وأبيكم ، وأصل ملة الاسلام ، وصاحب العهد مع ربه عليه .. « وما كان من المشركين » .. بينما أنتم تشركون ..

ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين ، من لدن ابراهيم أبي الأنبياء الى عيسى بن مريم ، الى الاسلام الأخير . ودعوة أهل الكتاب الى الايمان بهذا الدين الواحد :

« قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ..

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً ، هي قاعدة التصور الاسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الارض ، الموصولة بهذا الاصل العريق، السائرة في الدرب على هدى ونور. والتي تجعل من النظام الاسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد . والتي تجعل من المجتمع الاسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة . ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة . حقيقة أن هذه العقيدة هي الهدى . من اتبعها فقد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ؛ ومن ثم يظل في شقاق مع الشيع المختلفة التي لا تلتقي على قرار :

« فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق » ..

وهـذه الكلمة من الله ، وهذه الشهادة منـه سبحانه ، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه . فهو وحـده المهتدي . ومن لا يؤمن بما يؤمن بـه فهو المشاق للحق المعادي للهدى . ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدي ولا يؤمن ، ولا عليه من كيده ومكره . ولا عليـه من جداله ومعارضته . فالله سيتولاهم عنـه ، وهو كافيه وحسبه :

« فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم » ..

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، وبالعلامة التي يضعها الله على اوليائه ، فيعرفون بها في الأرض :

« صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » ..

صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته الى البشر . لتقوم عليها وحـــدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة.. إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريري : « صبغة الله ومن احسن من الله صبغة » .. أما باقيهـا فهو من كلام المؤمنين . يلحقـــه السياق – بلا فاصل – بكلام الباريء سبحانه في السياق . وكله قرآن منزل . ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والشطر الثاني حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينـــه وبينهم . وأمثال هذا في القرآن كثير . وهو ذو مغزى كبير .

ثم تمضي الحجة الدامغة الى نهايتها الحاسمة :

« قل : أتحاجوننا في الله ، وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ » ..

ولا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته . فهو ربنـــا وربكم ، ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وُزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً ، ولا نرجو معه أحداً .. وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ؛ وهو غـير قابل للجدل والمحاجة واللجاج ..

ومن ثم يضرب السياق عنه ، وينتقل الى مجال آخر من مجالات الجـدل . يظهر أنه هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال :

« أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ » .

وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم – وهو الاسلام كما سبق البيان – :

« قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ » ..

وهو سؤال لا جواب عليه اوفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه!

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل ان تكون اليهودية والنصرانية. وكانوا على الحنيفية الاولى التي لا تشرك بالله شيئاً . ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سيبعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم . ولكنكم تكتمون هذه الشهادة :

« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ » ..

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها ، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها :

« وما الله بغافل عما تعملون » ..

* * *

وحين يصل السياق الى هذه القمة في الافحام ، والى هذا الفصل في القضية ، والى بيان ما بين ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه .. عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن ابراهيم وذريته المسلمين .

« تلك أمة قد خلت . لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون » ..

وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الاخيرة في تلك الدعاوي الطويلة العريضة .

انتهى الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني، مبدوءاً بقوله تعالى: سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

الفهرس

جدول الخطأ والصواب

صفحة	السطر	الصواب	الخطأ
٢٤	١	الحنيفية	الحنيفة
٢٤	٢٣	بن	ابن
٢٥	١٢	بن	ابن
٢٦	٥	يتجهمني	يتهجمني
٢٦	٢٧	بن	ابن
٣٩	٣	جهازاً	جهاز
٣٩	٢١ – ٢٢	بن	ابن
٤٠	٥	قليل	قلبل
٦١	١٦	تطغى	تطغي
٦٥	١٤	الارض	الاوض
٦٧	٢٦	تهوي	تهوى
٨١	٤	تتجه	تنجه
٨٨	٢٧	القاسية	الجاسية
٩٠	١٠	بن	ابن
٩١	٣	والقرآن	والقون
١٠٠	١٨	موسى	موسي
١٣٣	٦	آمنوا	امنو
١٤٠	١	سخر	سحر
١٤٤	٧	الاخيرة	الاخير

